المبحث الأول: بداية الظهور

أولاً: القرن الأول الهجري.

زمن الرسول ﷺ:

إن القارئ لتاريخ الإسلام يدرك أنه منذ بزوغ شمسه قد تعرض إلى حملات شرسة من قبل أعدائه، فتعرض للكيد والتشكيك والمصادمة والتشويه؛ وذلك لتغيير مساره، وعرقلة طريقه، والانحراف به عن الوجهة الربانية المراد منه بلوغها.

ففي زمن رسول الله ﷺ ظهرت أطياف مختلفة من أعدائه، فمنهم: المشرك، واليهودي[١]، والنصراني[٢]، والمنافق-وكان أشدهم ضررًا، وأخبثهم كيدًا على

---

(١) اليهود: وهم أمة موسى عليه السلام وسموا يهودًا لميلهم، وهو رجوعهم من شيء إلى شيء، والهود الميل، وقيل: لأنهم من ولد يهوذا بن يعقوب عليه السلام وقد ذكر الله-تعالى-في القرآن من اعتقادهم ما دل على كفرهم، كقولهم: عزير ابن الله، وقولهم هم والنصارى: (نحن أبناء الله وأحباؤه)، وغير ذلك مما نزل به القرآن. ينظر: البرهان في عقائد أهل الأديان، السكسكي، ص٧٥، الموجز في الأديان، ناصر القفاري، ناصر العقل، ص١٨.

(٢) النصارى: ينسبون إلى قرية بالأردن تسمى ناصرة؛ لأنها كانت بدء خروجهم منها، ويقال: إلى قرية بالشام اسمها نصرويه، وهم من قوم عيسى عليه السلام وهم فرق عظيمة، منهم خمس: الملكانية، وهم يقولون: إن اتحاد الله-تعالى-بعيسى كان باقيا حالة صلبه، الثانية: النسطورية، الثالثة: اليعقوبية، وهم يقولون: إن روح الباري اختلط ببدن عيسى عليه السلام اختلاط الماء باللبن، الرابعة: الفرفوريوسية: وهم أتباع فوفوريوس الفيلسوف، وقد أخرج أكثر دين النصارى على قواعد الفلسفة، الخامسة الأرمنوسية، يقولون: إن الله-تعالى-دعا عيسى ابنًا على سبيل التشريف. ينظر: اعتقادات فرق المسلمين، الرازي، ص ٨٦، البرهان في عقائد أهل الأديان، مرجع سابق، ص =

الإسلام- فكانوا يبذلون الجهود الكبيرة، ويطرحون الشبهات الكثيرة؛ لعرقلة مسيره، وإطفاء نوره، فكانت تلك الشبهات والاعتراضات التي طرحت هي البذور الأولى لما جاء بعدها من الفرق والضلالات، كما قرره الشهرستاني[١]، حيث قال: "وكما قررنا أن الشبهات التي وقعت في آخر الزمان هي بعينها تلك الشبهات التي وقعت في أول الزمان، كذلك يمكن أن نقرر في زمان كل نبي ودور صاحب كل ملة وشريعة: أن شبهات أمته في آخر زمانه ناشئة من شبهات خصماء أول زمانه من الكفار والملحدين، وأكثرها من المنافقين، وإن خفي علينا ذلك في الأمم السالفة؛ لتمادي الزمان، فلم يخف في هذه الأمة أن شبهاتها نشأت كلها من شبهات منافقي زمن النبي-عليه الصلاة والسلام؛ إذ لم يرضوا بحكمه فيما كان يأمر وينهى، وشرعوا فيما لا مسرح للفكر فيه ولا مسرى، وسألوا عما منعوا من الخوض فيه، والسؤال عنه، وجادلوا بالباطل فيما لا يجوز الجدال فيه"[٢].

من خلال ما سبق ذكره، يمكن استنتاج أن تاريخ إنكار السنة النبوية يكاد

=

٧٨، الموجز في الأديان، مرجع سابق، ص٦٣.

(١) محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني: الفيلسوف المتكلم، ولد في شهرستان، سنة (٤٧٩هـ)، وتوفي بها، سنة (٥٤٨هـ)، كان يتهم بالإلحاد والتشيع الغالي، له تصانيف، منها: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، والإرشاد إلى عقائد العباد، وغيرها. ينظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، (٢٨٦/٢٠)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، (٣٢٣/١)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، (١٤٩/٤).

(٢) الملل والنحل، الشهرستاني، (٢٠/١).

يواكب إنكار الرسالة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، "فالكفر بسنته -عليه الصلاة والسلام- هو قرين الكفر برسالته، فهما أمران متقاربان زمانًا متساويان مترلة، ويكادان يكونان متماثلين حكمًا، ولا يختلفان إلا باعتبار أن ثمة كفرًا دون كفر، وإلا فإنكار سنة رسول الله ﷺ وجحدها كفر، كما أن إنكار رسالته كفر"[(١)].

وقد ابتلي الإسلام في مصدره الثاني(السنة النبوية) منذ عهد النبيﷺفظهر من ينكر السنة أو يعارضها أو يردها بمحض رأيه، واتباعًا لنفسه وهواه، ومن حاول التزهيد فيها، وصد الناس عن كتابتها، بدافع من الجهل عن مكانتها ومترلتها، فكان من أعلام نبوته ﷺ، ودلائل صدق رسالته أن حذر أمته من سلوك طريق هذه الفتنة، وبين لهم ما يحتويه هذا الفكر من الزيغ والضلال، والبعد عن منهج الإسلام، فقد جاء عنه ﷺ أنه قال: (لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ مُتَّكِئًا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَأْتِيهِ أَمْرٌ مِمَّا أَمَرْتُ بِهِ أَوْ نَهَيْتُ عَنْهُ، فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي! مَا وَجَدْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ اتَّبَعْنَاهُ)[(٢)]. قال البيهقي[(٣)]رحمه الله: "وهذا خبر من رسول الله ﷺ عما يكون

---

(١) التيارات الوافدة وموقف الإسلام منها، د. محمود مزروعة، ص٢٤٣. بحث: الجذور التاريخية لمنكري السنة النبوية وأماكن انتشارهم، د. عادل بن محمد الغرياني، ص١٣٧.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود، برقم، (٤٦٠٧)، (٣٢٩/٤)، والترمذي، برقم، (٢٦٦٣)، (٣٧/٥)، ابن ماجة، برقم، (١٣)، (٩/١)، مسند الإمام أحمد، برقم، (٢٣٨٧٦)، (٣٠٢/٣٩). قال الشيخ الألباني: الحديث صحيح. ينظر: مشكاة المصابيح، برقم، (١٦٢)،(٥٧/١).

(٣) أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر البيهقي، الفقيه الشافعي، كان من أئمة الحديث. ولد، سنة (٣٨٤ ه)، وتوفي، سنة(٤٥٨هـ)، قال الذهبي: "صنف زهاء ألف جزء، منها: السنن الكبرى، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة، وغيرها. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، =

بعده من رد المبتدعة حديثه، فوجد تصديقه فيما بعد"[١]. إذ ظهر في الأمة طوائف تنكر السنة النبوية كلها أو بعضها بدعوى الاستغناء عنها بالقرآن الكريم.

بيد أن هذا الفكر في زمن النبي ﷺ لم يكن منهجًا يسير عليه جماعة من الناس في ذلك الوقت، بل كان عبارة عن مواقف فردية نادرة لا تشكل منهجًا عامًا يُسار عليه، فهي حالات شاذة ونادرة لا عبرة بها، فقد بقي الوضع صافيًا في زمن النبي ﷺ حيث كان جميع الصحابة ﷺ منقادين لرسول الله ﷺ طائعين ومسلِمين لسنته، ولكن يمكن اعتبار تلك المواقف النادرة قد مثَّلت البداية الأولى لفكر طائفة منكري السنة التي أصبحت في عصرنا الحاضر مدرسة لها فكر وقواعد تسير عليه.

ومن تلك المواقف التي يمكن اعتبارها البداية في عهد المصطفى ﷺ: ما روي أن أعرابيًا جاهلاً وقف بين يدي رسول اللهﷺمعترضًا على حكمه في قسمة مال جاءه من اليمن، وقد بين الصحابة وصف ذلك الرجل، فقالوا: (رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: (وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ

=

(٨/٤)، وفيات الأعيان، ابن خلكان، (٧٥/١)، سير أعلام النبلاء، مرجع سابق، (١٦٣/١٨)، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، ابن نقطة الحنبلي، ص١٣٧.

(١) دلائل النبوة، البيهقي، (٢٥/١).

يَتَّقِيَ اللَّهَ)[١].

وفي لفظ: (فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا عَدَلْتَ؟ فَقَالَ: وَيْلَكَ مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟)[٢].

وفي هذا الرد خروج صريح واعتراض لحكمه وسنته-عليه الصلاة والسلام، فهذا حكم بالهوى في مقابلة النص النبوي، واستكبار على الأمر بقياس العقل البشري، فكانت آفته أنه رضي برأي نفسه، ولو وقف لعلم أنه لا رأي فوق رأي رسول الله ﷺ، ولا حكم إلا ما حكم به، ومضت عليه سنته ﷺ[٣].

فيكون ذلك الرد لقضائه ﷺ رد لسنته ﷺ، فإنه من رد قضاءه فقد رد سنته؛ لأن هذا القضاء سنة من رسول الله ﷺ لا حكم منصوص في القرآن[٤].

ومن ذلك ما روي في سبب نزول الآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥]. فعن عُرْوَةَ بن الزُّبَيْرِ[٥]، أَنَّ عَبْدَ اللهِ بن الزُّبَيْرِ[٦]، حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلاً مِنَ

---

(١) رواه البخاري، برقم (٤٠٩٤)، (١٥٨١/٤)، ومسلم، برقم(١٠٦٤)، (٧٤١/٢).

(٢) رواه البخاري، برقم (٥٨١١)، (٢٢٨١/٥).

(٣) ينظر: الملل والنحل، مرجع سابق، (٢٠/١)، تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص٨٢.

(٤) ينظر: مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، السيوطي، ص١٧.

(٥) عروة بن الزبير بن العوام الأسدي القرشي، أبو عبد الله: أمه أسماء بنت أبي بكر الصديق، ولد سنة (٢٢هـ)، كان عالمًا، صالحًا، متفقهًا في الدين، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة، لم يدخل في شيء من الفتن. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مصر فتزوج وأقام بها سبع سنين، وعاد إلى المدينة، فتوفي فيها، سنة (٩٣هـ). ينظر: الطبقات الكبرى، ابن سعد، (١٣٦/٥)، التاريخ الكبير، ابن أبي خيثمة، (١٤١/٢)، الثقات، ابن حبان، (١٩٤/٥)، طبقات الفقهاء، الشيرازي، ص٥٨.

(٦) الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، يكنى أبا عبد الله، حواري رسول الله ﷺ، أمه =

الْأَنْصَارِ خَاصَمَ الزُّبَيْرَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فِي شِرَاجِ الْحَرَّةِ الَّتِي يَسْقُونَ بِهَا النَّخْلَ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: سَرِّحِ الْمَاءَ يَمُرُّ، فَأَبَى عَلَيْهِمْ، فَاخْتَصَمُوا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلزُّبَيْرِ: اسْقِ يَا زُبَيْرُ ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنْ كَانَ ابْنَ عَمَّتِكَ، فَتَلَوَّنَ وَجْهُ نَبِيِّ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قَالَ: (يَا زُبَيْرُ اسْقِ، ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ)، فَقَالَ الزُّبَيْرُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَحْسِبُ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾ [النساء: ٦٥][(١)] فكما هو معلوم أن رد حكم النبي ﷺ هو رد للسنة النبوية؛ إذ إن هذا "القضاء سُنَّة من رسول الله، لا حكم منصوص في القرآن"[(٢)]، فأقضيته ﷺ جزء من سنته، ولكن الرسول ﷺ قد تجاوز عن ذلك الأنصاري، وعفا عنه زلته لما يعلم منه ﷺ من صحة يقينه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[(٣)]: "ومن هذا

=

صفية بنت عبد المطلب، هاجر الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة، وشهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، استشهد سنة(٥٣٦). ينظر: معجم الصحابة، ابن قانع، (٢٢٣/١)، الاستيعاب، ابن عبد البر، (٥١٠/٢)، الطبقات الكبرى، (٧٤/٣)، طبقات خليفة بن خياط، (٤٣/١).

(١) صحيح البخاري، برقم، (٢٢٣١)، (٨٣٢/٢)، صحيح مسلم، برقم، (٢٣٥٧)، (١٨٢٩/٤).

(٢) الرسالة، الإمام الشافعي، ص٨٢، أحكام القرآن للشافعي، جمع أبي بكر البيهقي، (٣٠/١)، معرفة السنن والآثار، أبو بكر البيهقي، (١٠٦/١).

(٣) شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني الدمشقي الحنبلي، تقي الدين، أبو العباس، الإمام المحقق، الحافظ المفسر، الأصولي، الأديب، النحوي، المعروف بابن تيمية، ولد، سنة (٦٦١ ه)، وتوفي وهو سجين في قلعة دمشق، سنة(٧٢٨ه)، من كبار أئمة السلف، امتحن وأوذي مرات عديدة، له تصانيف كثيرة نافعة، منها: الفتاوى، الفرقان بين أولياء الله وأولياء

=

الباب قول القائل: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وقول الآخر: اعدل فإنك لم تعدل، وقول ذلك الأنصاري: أن كان ابن عمتك، فإن هذا كفر محض، حيث زعم أن النبي ﷺ إنما حكم للزبير؛ لأنه ابن عمته، ولذلك أنزل الله-تعالى- هذه الآية، وأقسم أنهم لا يؤمنون حتى لا يجدوا في أنفسهم حرجًا من حكمه، وإنما عفا عنه النبي ﷺ كما عفا عن الذي قال: إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله، وعن الذي قال: اعدل فإنك لم تعدل، وقد ذكرنا عن عمر ﷺ أنه قتل رجلاً لم يرضَ بحكم النبي ﷺ فنزل القرآن بموافقته، فكيف بمن طعن في حكمه"[(١)].

وقال النووي[(٢)] رحمه الله: "قال العلماء: ولو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاري اليوم من إنسان من نسبته ﷺ إلى هوى كان كفرًا، وجرت

=

الشيطان، الصارم المسلول على شاتم الرسول، وغيرها. ينظر: البداية والنهاية، ابن كثير، (٣٠٣/١٣)، شذرات الذهب، عبد الحي الحنبلي، (٨٠/٦)، معجم المحدثين، الذهبي، ص١١، العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ابن عبد الهادي الحنبلي، ص٢٤.

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول، ص٥٢٨.

(٢) يحيى بن شرف بن مري بن حسن الحزامي الحوراني، النووي، الشافعي، أبو زكريا، علامة بالفقه والحديث. ولد بنوى (من قرى حوران، بسورية)، وإليها نسبته، سنة(٦٣١هـ) ووفاته بها سنة (٦٧٦هـ). له مصنفات كثيرة، منها: المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، تهذيب الأسماء واللغات، وغيرها. ينظر: المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي، السخاوي، ص١٠، طبقات الشافعية الكبرى، (٣٩٦/٨)، طبقات الشافعيين، ابن كثير، ص٩٠٩، المعين في طبقات المحدثين، الذهبي، ص٢١٥، المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي، السيوطي، ص٢٥.

على قائله أحكام المرتدين، فيجب قتله بشرطه، قالوا: وإنما تركه النبي ﷺ لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس، ويدفع بالتي هي أحسن، ويصبر على أذى المنافقين، ومن في قلبه مرض"[١].

وقال ابن العربي[٢]: "كل من اتهم رسول الله ﷺ في الحكم فهو كافر، لكن الأنصاري زل زلة فأعرض عنه النبي ﷺ- وأقال عثرته لعلمه بصحة يقينه، وأنها كانت فلتة، وليست لأحدٍ بعد النبي ﷺ"[٣].

فمن خلال النصوص-السابقة- يتبين أهمية الاحتكام إلى رسول الله ﷺ والرضى بحكمه، فيما أمر وشرع، سواء كان هذا الحكم في حياته، أم كان موجودًا في سنته بعد وفاته، وأن الرفض والرد له أمرٌ عظيم، فقد حكم عليه علماء المسلمين بالكفر، فهو أمر لا يخرج من مسلم، وهذه الحالات النادرة التي بدرت من بعض الصحابة كان أمرها مرجوعاً إلى الرسول ﷺ فعفا عن

---

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (١٥/١٥٨).

(٢) محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأشبيلي المالكي، أبو بكر ابن العربي: القاضي، المفسر، كان من حفاظ الحديث، ولد في إشبيلية، سنة(٤٦٨)، ورحل إلى المشرق، وبرع في الأدب، وصنف كتبًا في الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ، منها: أحكام القرآن، العواصم من القواصم، عارضة الأحوذي في شرح الترمذي، وغيرها، ولي قضاء إشبيلية، ومات بقرب فاس، سنة(٥٤٣ه). ينظر: تاريخ قضاة الأندلس، أبو الحسن المالقي الأندلسي، ص١٠٥، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مرجع سابق، (٢/٢٥٢)، طبقات المفسرين، السيوطي، ص٤٦٨.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي، (١/٥٧٨).

بعضهم وتجاوز؛ لعلمه أنها زلة لسان منهم[١]، وأما ما وقع فيه ذو الخويصرة[٢]، فقد أخبر الرسول ﷺ بمآل فكره وشطط رأيه، بأن قال ﷺ: (دَعْهُ فَإِنَّ هَذَا مَعَ أَصْحَابٍ لَهُ-أَوْ فِي أَصْحَابٍ لَهُ-يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ)[٣].

زمن الصحابة رضي الله عنهم والتابعين:

وقد بدأت بذور هذا الرأي[٤] في عصر الصحابة رضي الله عنهم وذلك من خلال مواقف بعض الأفراد، ولم يكتب له الانتشار والظهور—كما حصل فيما بعد- وهذا بفضل الله، ثم بفضل جهود السلف من الصحابة والتابعين الذين هيأهم الله لحفظ السنة وتبليغها للأمة، فكانوا لأقوالهم بالمرصاد، يبددون ظلماتها بنور

---

(١) اختلف العلماء في الرجل الذي خاصم الزبير -رضي الله عنه-، هل هو من مؤمني الأنصار أم كان منافقًا على أقوال، أقواها-من وجهة نظر الباحث- ما حكم عليه الدَّاوُدِيُّ: بأنه كان منافقًا، وقد وافقه على رأيه هذا عدة من أهل العلم، ينظر في بيان ذلك: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، القاضي عياض، (١٦٢/٧)، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، (١٠٧/٨)، شرح سنن ابن ماجة، السيوطي، ص٤.

(٢) حرقوص بن زهير السعدي، كان مع الخوارج لما قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب-رضي الله عنه، فقتل يومئذ سنة (٣٧ه)، قال ابن حجر: "وذكر بعض من جمع المعجزات: أنّ النبي ﷺ قال: (لا يدخل النّار أحد شهد الحديبيّة إلّا واحد). فكان هو حرقوص بن زهير. فالله أعلم". ينظر: غوامض الأسماء المبهمة، ابن بشكول، (٥٤٥/٢)، أسد الغابة في تمييز الصحابة، (٧١٤/١)، الإصابة في تمييز الصحابة، (٤٤/٢).

(٣) رواه البخاري، برقم (٣٤١٤)، (١٣٢١/٣)، ومسلم، برقم (١٠٦٤)، (٧٤٤/٢).

(٤) الاعتراض على السنة أو ردها.

الحق[١]، وقد دل على ظهور بوادر هذا الفكر في زمن الصحابة دلائل، مع التنبيه، أنها لم تأخذ المنحى الفكري الموجه، بل كانت عبارة عن شبهات عارضة، سرعان ما رجع أصحابها، منها:

– عن عبد الله بن مسعود[٢]ﷺ، قال: "لَعَنَ اللَّهُ الوَاشِمَاتِ وَالْمُسْتَوْشِمَات، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ وَالْمُتَفَلِّجَاتِ، لِلْحُسْنِ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ» فَبَلَغَ ذَلِكَ امْرَأَةً مِنْ بَنِي أَسَدٍ يُقَالُ لَهَا أُمُّ يَعْقُوبَ، فَجَاءَتْ فَقَالَتْ: إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ أَنَّكَ لَعَنْتَ كَيْتَ وَكَيْتَ، فَقَالَ: وَمَا لِي أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمَنْ هُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَقَالَتْ: لَقَدْ قَرَأْتُ مَا بَيْنَ اللَّوْحَيْنِ، فَمَا وَجَدْتُ فِيهِ مَا تَقُولُ، قَالَ: لَئِنْ كُنْتِ قَرَأْتِيهِ لَقَدْ وَجَدْتِيهِ، أَمَا قَرَأْتِ: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧]؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَإِنَّهُ قَدْ نَهَى عَنْهُ، قَالَتْ: فَإِنِّي أَرَى أَهْلَكَ يَفْعَلُونَهُ، قَالَ: فَاذْهَبِي فَانْظُرِي، فَذَهَبَتْ فَنَظَرَتْ، فَلَمْ تَرَ مِنْ حَاجَتِهَا شَيْئًا، فَقَالَ: لَوْ كَانَتْ كَذَلِكَ مَا جَامَعْتُهَا"[٣].

---

(١) ينظر: السنة في مواجهة الأباطيل، محمد طاهر الحكيم، ص٢٦، بحث: أضواء على مذاهب الذين رفضوا السنة، د. الأشقر، ص٢١، تدوين السنة النبوية، د. محمد بن مطر الزهراني، ص٤٨، ٥٥.

(٢) عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي، أبو عبد الرحمن: الصحابي الجليل، الإمام الحبر، كان من أكابر الصحابة، فضلاً، وعقلاً، وعلمًا، ومن أوائل السابقين إلى الإسلام، وكان خادم رسول الله الأمين، توفي سنة(٣٢هـ). ينظر: الطبقات الكبرى، (١١١/٣)، المحبر، محمد بن حبيب البغدادي، ص٢٧٨، سير أعلام النبلاء، (٤٦١/١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (٩٨٧/٣).

(٣) صحيح البخاري، برقم (٤٦٠٤)، (١٨٥٣/٤)، صحيح مسلم، برقم (٢١٢٥)، (١٦٧٨/٣)، وهذا لفظ الإمام مسلم.

- وعن الحسن البصري[١] -رحمه الله تعالى- أن عمران بن حصين[٢] ﷺ كان جالسًا ومعه أصحابه يحدثهم، فقال: رجل من القوم لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له عمران بن حصين: ادنه، فدنا، فقال: أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن، أكنت تجد فيه صلاة الظهر أربعًا، وصلاة العصر أربعًا، والمغرب ثلاثًا، تقرأ في اثنتين، أرأيت لو وكلت أنت وأصحابك إلى القرآن أكنت تجد الطواف بالبيت سبعًا، والطواف بالصفا والمروة، ثم قال: أي قوم، خذوا عنا؛ فإنكم والله إن لا تفعلوا لتضلن[٣].

وفي رواية أخرى: أن رجلاً قال لعمران بن حصين: مَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تُحَدِّثُونَاهَا وَتَرَكْتُمُ الْقُرْآنَ؟ قال: أرأيت لو أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن، من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا، وصلاة العصر عدتها كذا، وحين وقتها كذا، وصلاة المغرب كذا؟ والموقف بعرفة، ورمي الجمار كذا؟ واليد من أين تقطع؟ أمن هنا أم هاهنا أم من هاهنا؟ ووضع يده على مفصل

---

(١) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد: الفقيه الزاهد العابد، سيد التابعين، ولد بالمدينة، سنة(٢١ه)، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه. توفي بالبصرة، سنة(١١٠ه). ينظر: تسمية فقهاء الأمصار، أحمد بن شعيب النسائي، ص١٢٩، ميزان الاعتدال، الذهبي، (٥٢٧/١)، السلوك في طبقات العلماء والملوك، الجندي، (١٢٥/١).

(٢) عمران بن حصين بن عبيد، أبو نجيد الخزاعي: القدوة الإمام، صاحب رسول الله ﷺ كان من علماء الصحابة. أسلم قديمًا، وبعثه عمر -ﷺ - إلى أهل البصرة ليفقههم، توفي في خلافة معاويةﷺ، سنة(٥٢ه). ينظر: المعارف، ابن قتيبة، ص٣٠٩، طبقات خليفة بن خياط، ص١٧٩، التاريخ الكبير، البخاري، (٤٠٨/٦).

(٣) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، ص١٥.

الكف، ووضع يده عند المرفق، ووضع يده عند المنكب. اتبعوا حديثنا ما حدثناكم، وإلا والله ضللتم[١].

- وعن أيوب السختياني[٢] أن رجلاً قال لمطرف بن عبد الله بن الشخير[٣]: لا تحدثونا إلا بالقرآن. فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلاً؛ ولكنا نريد من هو أعلم بالقرآن منا[٤].

- وعن الأوزاعي[٥]، قال: قال أيوب السختياني[٦]: إذا حدثت الرجل

---

(١) المرجع السابق، ص١٥، جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، (٣٦٨/٢).

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر: سيد فقهاء عصره. تابعي، كان ثقة ثبتًا ورعًا يستر حاله، من حفاظ الحديث. ولد سنة(٥٦هـ)، وتوفي سنة(١٣١هـ). ينظر: الثقات، ابن حبان، (٥٣/٦)، المنتظم في أخبار الملوك والأمم، مرجع سابق، (٢٨٨/٧)، مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، ابن حبان، ص٢٣٧.

(٣) مطرف بن عبد الله بن الشخير العمرى، أبو عبد الله، من كبار التابعين، ثقة، عابد، فاضل، قال العجلي: لم ينج بالبصرة من فتنة ابن الأشعث إلا رجلان: مطرف وابن سيرين، مات سنة (٩٥هـ). ينظر: معرفة الثقات، العجلي، (٢٨٢/٢)، طبقات خليفة بن خياط، ص٣٣٧، الكنى والأسماء، الإمام مسلم، (٤٦٨/١).

(٤) جامع بيان العلم وفضله، مرجع سابق، (٣٦٨/٢).

(٥) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، أبو عمرو: إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، قال عبد الرحمن بن مهدي: ما كان أحد بالشام أعلم بالسنة من الأوزاعي. ولد سنة(٨٨هـ)، وتوفي سنة(١٥٧هـ). ينظر: طبقات الفقهاء، ابن منظور، ص٧٦، رجال صحيح مسلم، ابن منجويه، (٤١٢/١)، وفيات الأعيان، ابن خلكان، (١٢٧/٣).

(٦) سبق التعريف به.

بالسُّنَّة، فقال: دعنا من هذا، وحدثنا من القرآن، فاعلم أنه ضالٌّ مضلٌّ[١]. وفي لفظ: (فقال: دعنا من هذا، حسبنا القرآن)[٢].

- وعن زيد بن أرقم[٣] ﷺ قَالَ: بَعَثَ إِلَيَّ عُبَيد اللَّهِ بن زِيَادٍ[٤]، فَأَتَيْتُهُ فَقَالَ: مَا أَحَادِيثُ تُحَدِّثُ بِهَا وَتَرْوِيهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَا نَجِدُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ تُحَدِّثُ أَنَّ لَهُ حَوْضًا فِي الْجَنَّةِ، قَالَ: قَدْ حَدَّثَنَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَوَعَدَنَاهُ، فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ شَيْخٌ قَدْ خَرِفْتَ. قَالَ: إِنِّي قَدْ سَمِعْتُهُ أُذُنَايَ، وَوَعَاهُ قَلْبِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (مَنْ كَذَبَ عَلِيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ)، وَمَا كَذَبْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)[٥].

---

(١) الكفاية في علم الرواية، ص١٦، معرفة علوم الحديث، الحاكم النيسابوري، ص٦٥.

(٢) ذم الكلام وأهله، الهروي، (١٤٣/٢).

(٣) زيد بن أرقم بن قيس الخزرجي الأنصاري: صحابي جليل، غزى مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة، مات بالكوفة، سنة(٦٨هـ). ينظر: معرفة الصحابة، أبو نعيم، (١١٦٦/٣)، تهذيب الكمال، المزي، (٩/١٠)، العبر في خبر من غبر، الذهبي، (٥٤/١)، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، (٥٣٥/٢).

(٤) عبيد الله بن زياد بن أبيه، أبو حَفْص، أمير العراق، ولي البصرة سنة(٥٥هـ)، وقال الذهبي في وصفه: "كان جميل الصورة قبيح السريرة"، وقال أيضًا: "الشيعي لا يطيب عيشه حتى يلعن هذا ودونه، ونحن نبغضهم في الله، ونبرأ منهم، ولا نلعنهم، وأمرهم إلى الله"، قتل سنة(٦٦هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء، (٥٤٥/٣)، الوافي بالوفيات، (٢٤٥/١٩).

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، برقم(١٩٢٨٥)، (٣٦٦/٤)، مسند البزار، برقم (٤٣٣٥)، (٢٣٩/١٠)، المعجم الكبير، الطبراني، برقم (٤٨٨١)، (١٠٩/٥)، المستدرك على الصحيحين، برقم (٢٥٨)، (١٤٩/١)، قال الهيثمي: رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبَرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَالْبَزَّارُ، وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، الهيثمي، برقم (٦٢٧)، (١٤٤/١).

ومن ذلك ما قَالَه أُمَيَّةُ بن خَالِدٍ[١]

لِعَبْدِ اللهِ بن عُمَرَ[٢]: إِنَّا نَجِدُ صَلَاةَ الْحَضَرِ، وَصَلَاةَ الْخَوْفِ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا نَجِدُ صَلَاةَ السَّفَرِ فِي الْقُرْآنِ، يَعْنِي صَلَاةَ الرُّبَاعِيَّةَ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: يَا أَخِي إِنَّ اللهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَلَا نَعْلَمُ شَيْئًا فَإِنَّمَا نَفْعَلُ كَمَا رَأَيْنَا مُحَمَّدًا ﷺ يَفْعَلُ)[٣].

ومن خلال النصوص السابقة يتبين لنا أمور، منها:

١- في حديث ابن مسعود ﷺ قد يكون الدافع للمرأة الأسدية إلى ذلك الاعتراض ليس نتيجة فكر تحمله، أو آراء تؤمن بها، ولكن لعله نتيجة لكثرة قراءتها للقرآن والجهل بآياته وأحكامه، ولم تتنبه لأهمية السنة النبوية في تبيين القرآن الكريم، فأدى بها الأمر إلى ما كان منها، وهذه نتيجة طبيعية لمن فصل

---

(١) أمية بن عَبْدِ اللَّهِ بن خَالِدِ بن أُسَيْدٍ بن أبي العيص بن أمية بن عبد شمس. كان قليل الحديث، روى عن ابن عمر، استعمله عبد الملك بن مروان على خراسان، توفي سنة (٨٦هـ). ينظر: الطبقات الكبرى، (٢٨/٦)، التاريخ الكبير، (٧/٢)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، (١٨/٥).

(٢) عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي، أبو عبد الرحمن: الصحابي الجليل، العالم، الفقيه، القدوة، كان من المكثرين في الرواية عن رسول الله ﷺ ولد بمكة سنة(١٠ ق. ه)، نشأ في الإسلام، وهاجر إلى المدينة مع أبيه، وشهد فتح مكة، كان آخر من توفي بمكة من الصحابة، سنة (٧٣هـ)، وقيل: ٧٤هـ. ينظر: التاريخ الكبير، الإمام البخاري، (٢/٥)، تاريخ الإسلام، الذهبي، (٢٦٨/٥)، الاستيعاب، (٩٥٠/٣).

(٣) مسند الإمام أحمد، برقم، (٥٦٨٣)، (٤٩٥/٩)، صحيح ابن خزيمة، برقم (٩٤٦)، (٧٢/٢)، صحيح ابن حبان، (١٤٥)، (٣٠١/٤)، قال الأعظمي في تعليقه على صحيح ابن خزيمة: إسناده صحيح.

بين الأصلين، وفرق بين المتلازمين.

٢- وأما الرجل الذي اعترض على عمران بن الحصين، فكان يحمل هذا الفكر(إنكار السنة)، ويلتقي معه فيه آخرون، بدليل أن عمران بن الحصين ﷺ قال له: (أنت وأصحابك)، فكأن عمران بن حصين سمع ما يردده هو وأصحابه ممن حمل هذا الفكر فرد عليهم، وأبان عن ضلالهم إن سلكوا هذ المنهج في إقصاء السنة النبوية عن بيان معاني الأحكام القرآنية.

٣- ومن أثر عمران بن حصين يمكن استنباط أمر آخر، وهو أن هذا الفكر كان في طوره الأول، طور النشأة، حيث إنه لم يكن له تأثير على صاحبه، و لم تتوغل شبهاته في قلبه، وبرهان ذلك أن صاحبه سرعان ما آب إلى رشده، وعاد إلى صوابه، وقال لعمران -معترفًا بفضله-: "أحييتني، أحياك الله. قال الحسن: فما مات ذلك الرجل حتى صار من فقهاء المسلمين"[(١)].

٤- وأما ما كان من عبيد الله بن زياد فقد اشتهر بالسفه، وسفك الدماء، وقلة الدين، وعدم توقير صحابة رسول الله ﷺ فقد وصف بعضهم بالخثالة، وأنكر-كذلك- الحوض[(٢)].

---

(١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم، برقم(٣٧٢)، (١/١٩٢)، ذم الكلام وأهله، مرجع سابق، (٢/٨٠)، الثقات، لابن حبان، (٧/٢٤٨).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء، (٤/٥٠٨)، تاريخ دمشق، ابن عساكر، (٦٢/٩٧)، سير أعلام النبلاء، (٩/١٨٥)، منهاج السنة، (٤/٥٥٦)، ساق الذهبي بسنده إلى الحَسَنِ، قَالَ: قَدِمَ عَلَيْنَا عُبَيْدُ الله، أَمَّره مُعَاوِيَةُ، غُلَامًا سَفِيْهًا، سَفَكَ الدِّمَاءَ سَفْكًا شَدِيْدًا، فَدَخَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ الله بن مُغَفَّلٍ ﷺ، فَقَالَ: انْتَهِ عمَّا أَرَاكَ تَصْنَعُ، فَإِنَّ شرَّ الرِّعَاءِ الْحُطَمَةُ. قَالَ: مَا أَنْتَ وَذَاكَ؟ إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ خُثَالَةِ أَصْحَابِ =

وأما سؤال أمية بن خالد لعبد الله بن عمر ﷺ الذي يظهر منه أنه سؤال استفسار، لا سؤال استنكار، حيث أراد من خلاله أن يعرف مصدر تشريع تقصير الصلاة الرباعية في السفر، حيث لم يجدها في القرآن الكريم، أو أنه "حاول أن يبحث كافة المسائل في القرآن وحده"[1] فأعلمه ابن عمر أن ذلك التشريع جاء من السنة النبوية، فانصاع لقوله.

وقد عرف الصحابة ﷺ أن الحاجة ملحة لأخذ السنة النبوية والاهتمام بها؛ لما كانوا يعلمون من أهميتها في تبيين القرآن الكريم وتوضيحه، كما أحسوا –أيضًا– بالحاجة الملحة لتبليغها وصيانتها ممن كان يحاول معارضتها أو ردها، فإنه كما رأينا –في النصوص السابقة– قد وجد في زمنهم ﷺ من تعرض لرد السنة أو التشكيك فيها، فما كان من صحابة رسول الله ﷺ إلا أن خاصموه وأبانوا له الحجة، ووضحوا العلاقة بين الأصلين العظيمين، فهذا –على سبيل المثال– الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ في الأثر السابق يبين للمرأة أن لعنه لهذه الأعمال كان من خلال كتاب الله، وعرفها بمراده من قوله: (وهو في كتاب الله)، أي: أن الله ﷻ قد أمر المسلمين في كتابه بأخذ ما وردنا عن رسول الله ﷺ، وهو في طريقته هذه يعطي لمن جاء بعده من أبناء المسلمين درسًا تطبيقيًا في كيفية التعامل مع هذا الفكر، وأسلوبًا حكيمًا في دفعه، وإزالة الغشاوة عمن تأثر به، وهكذا –أيضًا– دأب صحابة رسول الله ﷺ في التعامل

=

مُحَمَّدٍ ﷺ، قَالَ: وَهَلْ كَانَ فِيهِم حُثَالَةٌ، لاَ أُمَّ لَكَ!.

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، محمد مصطفى الأعظمي، (٢١/١).

مع كل من وجدوه متأثرًا بذلك الفكر الضال، في زمنهم-على ندرته وقلته، وإن وجد فمن قبل أفراد قلائل، فيبين لهم الحق ويوضح لهم الصواب، وأن هذا التفريق بين الأصلين الشريفين قد حذر منه الرسولﷺ، وأنه أصل الضلال، ومنبع الزيغ عن شريعة الإسلام، فسرعان ما يعود أولئك إلى رشدهم، وتنقطع دابر الفتنة، وتعلوا السنة.

حذر الصحابة من وجد في زمنهم من أبناء المسلمين من هذا الفكر النشاز الذي قد يظهر فيما بعد؛ خوفًا أن يقع فيه أحد من المسلمين، فهذا حافظ السنة وراوية الإسلام الصحابي الجليل أبو هريرة[1] ﷺ يحذر من هذه الفتنة، وأنها ستظهر بين أبناء أمة الإسلام، فكان يقول لأصحابه: (والذي نفسي بيده ليأتين على الناس زمان يحدثون بأحاديث رسول الله ﷺ فيقوم أحدهم فينفض ثوبه، يقول: لا إلا القرآن، وما يعمل من القرآن بحرف)[2]. وكذلك ابن مسعودﷺ يحذر الأمة من شر هذه الفئة الضالة، ويحذر الأمة منها لمعرفته أن دعواهم لا تمد إلى العلم والحق بصلة، فقد روي عنهﷺ أنه قال: (يا أيها الناس، عليكم بالعلم قبل أن يرفع؛ فإن من رفعه أن يقبض أصحابه، وإياكم والتبدع والتنطع، وعليكم بالعتيق، فإنه سيكون في آخر هذه الأمة أقوام يزعمون أنهم يدعون إلى

---

(١) اختلف في تعيين اسمه على أقوال، من أشهرها، أن اسمه: عبد الرحمن بن صخر الدوسي، الصحابي الجليل، راوية الإسلام، وأكثر من طعن فيه أعداء الإسلام، كان إسلامه سنة خيبر(٥٧)، وكان من الحفاظ المواظبين على صحبة رسول الله ﷺ- في كل وقت على ملء بطنه، توفي سنة (٥٥٩). ينظر: مشاهير علماء الأمصار، ابن حبان، ص٣٥، أسماء من يعرف بكنيته، أبو الفتح الموصلي، ص٦١، معرفة الصحابة، أبو نعيم، (١٨٤٦/٤)، الاستيعاب، (١٧٦٨/٤).

(٢) الحجة في بيان المحجة، قوام السنة الأصفهاني، (٥٣١/٢).

كتاب الله، وقد تركوه وراء ظهورهم)[١].

وما إن مرت الأيام والسنون حتى حدثت الفتنة الكبرى، تلك الفتنة التي أودت بحياة أمير المؤمنين عثمان بن عفانﷺ الذي قتل فيها-مظلومًا- من قبل الخوارج[٢]، تلك الفرقة المارقة من الدين التي أخبر المصطفى -عليه الصلاة والسلام- في الحديث أنهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية[٣]،فكفرت الصحابةﷺ وردت أحاديثهم التي رووها عن رسول الله ﷺ[٤] فكان الطعن فيهم ﷺ طعنًا مباشرًا في المكانة التشريعية للسنة، ومحاولة خبيثة لإبطال أهمية أحد المصدرين الأساسيين للإسلام؛ وذلك لأنهم الحملة الأولون لها[٥]، فكانت بدعتهم تلك أول البدع ظهورًا في الإسلام وأظهرها ذمًّا في السنة والآثار[٦]،

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى، البيهقي، برقم (٣٨٨)، ص٢٧٢.

(٢) ينظر: الشريعة، الآجري، (٣٢٧/١)، النبوات، ابن تيمية، (٥٦٤/١)، مجموع الفتاوى، (٣٢/١٣)، منهاج السنة، (٣٠٦/١)، التمهيد والبيان في مقتل الشهيد عثمان، أبو عبد الله المالقي الأندلسي، ص١٠٩.

(٣) روي الحديث بألفاظ عدة، منها: ما رواه البخاري، برقم، (٥٠٥٨)، (١٩٧/٦)، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (يَخْرُجُ فِيكُمْ قَوْمٌ تَحْقِرُونَ صَلاَتَكُمْ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَكُمْ مَعَ صِيَامِهِمْ، وَعَمَلَكُمْ مَعَ عَمَلِهِمْ، ويقرؤون القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي القِدْحِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَنْظُرُ فِي الرِّيشِ فَلاَ يَرَى شَيْئًا، وَيَتَمَارَى فِي الفُوقِ). ورواه بلفظ قريب منه مسلم، برقم، (١٠٦٤)، (٧٤٢/٢).

(٤) ينظر: منهاج السنة النبوية، (٥٤٣/١)، الاعتصام، الشاطبي، (٥٩١/٢)،.

(٥) ينظر: زوابع في وجه السنة قديمًا وحديثًا، صلاح الدين مقبول، ص٣٥.

(٦) ينظر: مجموع الفتاوى، (٧١/١٩).

حيث قالوا: "لا حجه إلا القرآن، وأن السنة الصادرة عن الرسول الله ﷺ ليس حجة"[١] وكان عند هذه الفرقة من الغلظة والجرأة في رد الآثار النبوية، والتعالي على الأحكام المصطفوية، ما ليس عند غيرهم من الفرق، فأولهم قال للرسول ﷺ: (اعدل فإنك لم تعدل)[٢]. وسار على منهجه أتباعه فردوا الأحاديث، وكذبوا السنن مدعين أنها تخالف القرآن، قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٣] رحمه الله تعالى: "فهم لا يرون اتباع السنة التي يظنون أنها تخالف القرآن، كالرجم، ونصاب السرقة، وغير ذلك فضلوا"[٤]. وما إن ظهرت الفرق والمذاهب كالرافضة[٥] والمعتزلة[٦] والجهمية[٧]، وغيرها من أهل البدع، حتى ساروا على

---

(١) الصارم المسلول، ص١٨٤.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) مجموع الفتاوى، (٢٠٨/١٣).

(٥) سيأتي-إن شاء الله- التعريف بها، والحديث عنها في مبحث الفرق المشابهة للقرآنيين.

(٦) سيأتي-إن شاء الله- التعريف بها، والحديث عنها في مبحث الفرق المشابهة للقرآنيين.

(٧) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان، تلميذ الجعد بن درهم، أول من قال بتعطيل الصفات، وأخذها عنه الجهم، وأظهرها فنسبت إليه، كان يقول: بخلق القرآن، ويزعم أن الله ليس على العرش بل في كل مكان، وقيل: إنه كان يبطن الزندقة. فَقَتَلَهُ سَلْمُ بن أَحْوَزَ أَمِيرُ خرسان، عام (١٢٨هـ)، وقيل: إن الجعد بن درهم أخذ عن أبان بن سمعان، وأبان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وهو اليهودي الذي سحر النبي ﷺ، فهي ترجع في أصلها إلى اليهود، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "اتَّفَقَ السَّلَفُ وَالْأَئِمَّةُ عَلَى أَنَّهُمْ مِنْ شَرِّ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، حَتَّى أَخْرَجَهُمْ كَثِيرٌ مِنْ الْأَئِمَّةِ عَنْ الِاثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً". ينظر: الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، (٢٩/٥)، مجموع الفتاوى، (٥٠٢/١٢)، أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات، مرعي المقدسي =

طريقهم، واقتفوا أثرهم في التكذيب بالسنن ورد الآثار المتواترة، فإن"غالب أهل البدع غير الخوارج يتابعونهم على هذا، فإنهم يرون أن الرسولﷺلو قال بخلاف مقالتهم لما اتبعوه، كما يحكى عمرو بن عبيد[١] في حديث الصادق المصدوق[٢]، وإنما يدفعون عن أنفسهم التهمة إما: برد النقل، وإما: بتأويل المنقول، فيطعنون تارة في الاسناد، وتارة في المتن، وإلا فهم ليسوا متبعين، ولا مؤتمنين بحقيقة السنة التي جاء بها الرسول ﷺ بل ولا بحقيقة القرآن"[٣].

وفي زمن التابعين –رحمهم الله تعالى– أتى من يحاول رد السنة النبوية بحجة أن في القرآن الكريم ما يخالفها، فقد روى الدارمي[٤] –رحمه الله– بسنده، عن

=

الحنبلي، ص٢٣٠، فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب العواجي، (١١٣١/٣).

(١) عمرو بن عبيد بن باب التيمي بالولاء، أبو عثمان البصري: شيخ المعتزلة في عصره، ومفتيها، قال بالقدر، واعتزل مجلس الحسن البصري، ولد سنة(٨٠هـ)، كان أئمة الحديث لا يروون عنه في الحديث شيء، فقد كان يشتم الصحابة، له رسائل وخطب وكتب، منها: التفسير، والرد على القدرية. توفي سنة(١٤٤هـ). ينظر: الكامل في الضعفاء، ابن عدي، (١٧٤/٦)، الضعفاء، أبو نعيم، ص١١٨، تاريخ بغداد، (١٦٤/١٢)، الضعفاء والمتروكون، ابن الجوزي، (٢٢٩/٢)، فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة، أبو القاسم البلخي، القاضي عبد الجبار، الحاكم الجشمي، ص٩٠.

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا إن شاء الله.

(٣) مجموع الفتاوى، (٧٣/١٩).

(٤) عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي، السجستاني، أبو سعيد: الإمام، العلامة، الحافظ، الناقد، شيخ هراة، ومحدثها. ولد سنة(٢٠٠هـ)، وتوفي سنة(٢٨٠هـ)، له تصانيف في الرد على الجهمية، منها: النقض على بشر المريسي، وله المسند. ينظر: سير أعلام النبلاء، (٣١٩/١٣)، إكمال تهذيب

=

سعيد بن جبير[١]، أنه حدث يومًا بحديث عن النبي ﷺ فقال له رجل: في كتاب الله ما يخالف هذا. فقال: لا أراني أحدثك عن رسول الله ﷺ وتعرض فيه بكتاب الله! كان رسول الله ﷺ أعلم بكتاب الله منك[٢].

وفي أواخر القرن الأول، ناظر عمر بن عبد العزيز[٣]—رحمه الله تعالى- الخوارج في إنكارهم للسنة النبوية، وإعراضهم عن الأحكام الشرعية الواردة فيها، فرجعوا عن ذلك، وأقروا بما ألزمهم به عمر بن عبد العزيز —رحمه الله تعالى-، قال شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو يتحدث عن الخوارج: "كذلك عمر بن عبد العزيز لما ناظرهم وأقروا بوجوب الرجوع إلى ما نقله الصحابة عن الرسول ﷺ من فرائض الصلاة بين لهم عمر أنه كذلك يجب الرجوع إلى ما

=

الكمال في أسماء الرجال، مغلطاي، (١٤٩/٩)، طبقات الشافعية الكبرى، (٣٠٢/٢).

(١) سعيد بن جبير بن هشام، الإمام، الحافظ، المقرئ، المفسر، أبو محمد، ويقال: أبو عبد الله الأسدي، مولاهم الكوفي، أحد الأعلام، أخذ العلم عن عبد الله بن عباس وابن عمر، ولد بعد سنة (٤٥ه)، قتله الحجاج سنة(٩٥ه)، قال الإمام أحمد بن حنبل: "قتل الحجاج سعيدًا، وما على وجه الأرض أحد إلا وهو مفتقر إلى علمه". ينظر: معرفة الثقات، العجلي، ص١٨١، التعديل والجرح، الباجي، (١٠٧٥/٣)، طبقات الفقهاء، الشيرازي، ص٨٢، الأعلام، مرجع سابق، (٩٣/٣).

(٢) مسند الدارمي، عَبْدِ اللهِ بن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن الفضل الدَّارِمِيَّ، برقم، (٦١٠)، (٤٧٥/١).

(٣) عمر بن عبد العزيز بن مروان، الأموي القرشي، أبو حفص: الخليفة الصالح، والملك العادل، ولد بالمدينة، سنة (٦١ه)، ونشأ بها، وولي إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام. وولي الخلافة بعهد من سليمان سنة(٩٩ هـ)، توفي سنة (١٠١ه). كانت مدة خلافته سنتان ونصف. ينظر: سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن الجوزي، ص٥، سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم، ص١٥١، أخبار أبي حفص عمر بن عبد العزيز، أبو بكر الآجُرِّيُّ، ص٥٥.

نقلوه عنه ﷺ من فريضة الرجم، ونصاب الزكاة، وأن الفرق بينهما فرق بين المتماثلين، فرجعوا إلى ذلك"[١].

ثانيًا: ظهورهم في القرن الثاني والثالث:

نتيجة لظهور الفرق في القرن الأول الهجري، كالخوارج والرافضة والمعتزلة وأهل الكلام، وانتشار مقالاتهم، وتداول شبهاتهم في أوساط المسلمين، فما إن بدأ القرن الثاني الهجري حتى كان لآرائهم وأقوالهم في السنة النبوية الأثر الأكبر على أتباع نحلتهم ومعتنقي فكرهم، والجهلة من أبناء المسلمين، فبدأوا يرددون كلامهم ويثيرون شبهاتهم، وتكفل بنشرها بعض زعمائهم الذين عرفوا برقة الدين، والاتصاف بالإلحاد والزندقة، وبغض سنة سيد المرسلين ﷺ، رغبة منهم في الصد عنها، وإبعاد الناس عن قبولها، والرجوع إليها، وكان على رأسهم عمرو بن عبيد[٢]، وثمامة بن أشرس[٣]، والنظام[٤] والجاحظ[٥]، وجماعة آخرون

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٩/٩٠).

(٢) سبق التعريف به.

(٣) ثمامة بن أشرس النميري، البصري، أبو معن: من كبار المعتزلة، ومن رؤوس الضلالة، وأحد الفصحاء البلغاء المقدمين. قال الصفدي: كَانَ جَامعًا بَين سخافة الدّين، والخلاعة، له أتباع يسمون (الثمامية) نسبة إليه. ينظر: سير أعلام النبلاء، (١٠/٢٠٣)، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٨/٢٠)، ميزان الاعتدال، (١/٣٧١)، الوافي بالوفيات، الصفدي، (١١/١٦).

(٤) إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام: من أئمة المعتزلة، كان شاعرًا بليغا متهمًا بالزندقة، توفي سنة(٢٣١ه). ينظر: سير أعلام النبلاء، (١٠/٥٤١)، الوافي بالوفيات، (٦/١٢)، لسان الميزان، (١/٦٧).

(٥) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كان عالمًا بالأدب =

كانوا يتعاطون الرأي والكلام.

فهذا عمرو بن عبيد(ت١٤٤ه)، كان رأسًا في القدرية[١] والاعتزال، يكذب على رسول الله ﷺ، وينكر الشفاعة، ويطعن في صحابة رسول الله ﷺ[٢]، روي له حديث عن عبد الله بن مسعود قال: (حدثنا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ: (إِنَّ خَلْقَ أَحَدِكُمْ يُجْمَعُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يومًا نطفة...الحديث الخ)[٣]، فقال: لو سمعت الأَعْمَشَ[٤] يقول هذا لقلت له: كذبت، ولو سمعت زَيْد بن وَهْبٍ[٥] يقول ذلك لقلت له: كذبت، ولو سمعت ابنَ مَسعُودٍ يقول

=

فصيحًا بليغًا، مصنفًا في فنون العلوم، وكان من أئمة المعتزلة، مولده سنة (١٦٣ه) ووفاته في البصرة، سنة (٢٥٥ هـ). قال الذهبي: "كَانَ مَاجِنًا، قَلِيْلَ الدِّيْنِ"، له تصانيف كثيرة، منها: الحيوان، والبيان والتبيين والبخلاء. ينظر: نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ابن الأنباري، ص١٤٨، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ياقوت الحموي، (٢١٠١/٥)، سير أعلام النبلاء، (٥٢٧/١١).

(١) سبق التعريف بها.

(٢) ينظر: التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن المعلمي، (٢٠٨/١).

(٣) الحديث متفق عليه، رواه الإمام البخاري في صحيحه، برقم، (٣٠٣٦)، (١١٧٤/٣)، والإمام مسلم في صحيحه، برقم، (٢٦٤٣)، (٢٠٣٦/٤).

(٤) سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالأعمش: تابعي، مشهور، ولد سنة (٦١ه) بالكوفة، ومات بها سنة (١٤٨ه). كان شيخ المقرئين والمحدثين، قال الذهبي: "كان رأسًا في العلم النافع، والعمل الصالح". ينظر: سير أعلام النبلاء، (٢٣٠/٦)، طبقات خليفة بن خياط، ص٢٧٨، غاية النهاية في طبقات القراء، ابن الجزري، (٣١٥/١).

(٥) زيد بن وهب، أبو سليمان الجهني الكوفي، الإمام الحجة، مخضرم قديم، ارتحل للقاء النبي ﷺ وصحبته، فقبض ﷺ وزيد في الطريق، سمع عمر، وعليًا، وابن مسعود، وأبا ذر الغفاري، =

ذلك ما قبلته، ولو سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك لرددته، ولو سمعت الله يقول ذلك لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا[١].

وكان ثمامة بن أشرس[٢] من أئمة الاعتزال، ورؤوس الضلال، كثير السُكْرِ[٣]، وكان من الرقة في الدين[٤]، والتنقص من الإسلام والاستهزاء بأهله، حيث "إنه رأى قومًا يتعادون يوم الجمعة إلى المسجد؛ لخوفهم فوت الصلاة، فقال: انظروا إلى البقر، انظروا إلى الحمير.

ثم قال لرجل من إخوانه: ما صنع هذا العربي[يعني: رسول الله ﷺ] بالناس؟ [٥].

قال الإمام الذهبي[٦]رحمه الله تعالى: "وكان ثمامة بن أشرس، وبشر

=

وحذيفة بن اليمان وطائفة. وقرأ القرآن على ابن مسعود، كانت وفاته بعد وقعة الجماجم في حدود سنة (٨٣هـ). ينظر: صفة الصفوة، (٣٠/٣)، سير أعلام النبلاء، (١٩٦/٤)، إكمال تهذيب الكمال، مرجع سابق، (١٧٢/٥).

(١) تاريخ الإسلام، (٢٣٩/٩)، تهذيب الكمال في معرفة الرجال، المزي، (١٢٩/٢٢)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، (٦١/٨).

(٢) سبق التعريف به.

(٣) ينظر: تاريخ الإسلام، الذهبي، (٩٦/١٥)، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي، (٢٥٤/١٠)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، بن تغري بردي، (٢٠٦/٢)، لسان الميزان، ابن حجر، (٨٢/٢).

(٤) ودليل ذلك: أن خادمه قال له يومًا: قم صل فتغافل، فقال له: قد ضاق الوقت فقم وصل واسترح، فقال أنا مستريح إن تركتني. الفرق بين الفرق، عبد القاهر البغدادي، ص١٥٩.

(٥) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص٩٩.

(٦) محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز، التُركماني الأصل، ثم الدمشقي، شمس الدين أبو عبد الله المقرئ. الإمام الحافظ، محدِّث العصر وخاتمة الحفَّاظ، ومؤرخ الإسلام. ولد بدمشق سنة

=

المريسي[١] آفة على السنة وأهلها"[٢].

وكذلك النظام[٣] الذي كان "شاطرًا من الشطار، يغدو على سكر، ويروح على سكر، ويبيت على جرائرها، ويدخل في الأدناس، ويرتكب الفواحش والشائنات، وهو القائل:

ما زلتُ آخُذُ رُوحَ الزِّقِّ في لُطُفٍ وأستبيحُ دمًا مِن غيرِ مجروحِ
حتى انثنيتُ ولي رُوحانِ في جسدِي والزِّقُّ مُطَّرَحٌ جِسمٌ بِلا رُوحِ[٤]

وقال ابن قتيبة[٥]: "وحكوا عنه أنه قال: قد يجوز أن يجمع المسلمون جميعا

=

(٥٦٧٣)، وتوفي بها سنة (٥٧٤٨)، قال السيوطي: "إن المحدثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة: المزيّ، والذهبي، والعراقي، وابن حجر". له مصنفات كثيرة، منها: تاريخ الإسلام، سير أعلام النبلاء طبقات الحفاظ، طبقات القراء، وغيرها. ينظر: المعجم المختص بالمحدثين، للمترجم له، ص٩٧، أعيان العصر، الصفدي، (٢٨٨/٤)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، ابن حجر، (٦٦/٥)، ذيل تذكرة الحفاظ، السيوطي، ص٢٣١، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الشوكاني، (١١٠/٢).

(١) بشر بن غياث بن أبي كريمة عبد الرحمن المريسي، فقيه معتزلي، اشتغل بالكلام، وجرد القول بخلق القرآن، وحكي عنه أقوال شنيعة، ومذاهب مستنكرة، فرمي بالزندقة. توفي سنة، (٥٢١٨). ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٦١/٧)، وفيات الأعيان، (٢٧٧/١)، المغني في الضعفاء، الذهبي، (١٠٧/١).

(٢) تاريخ الإسلام، (٩٦/١٥).

(٣) سبق التعريف به.

(٤) تأويل مختلف الحديث، ابن قتيبة، ص٦٦، ٦٧.

(٥) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدِّينورِي، أبو محمد. العلامة الكبير، ذو الفنون، ولد بالكوفة، سنة (٥٢١٣)، وتوفي ببغداد، سنة (٥٢٧٦). له مؤلفاته متعددة، من أشهرها: تأويل مشكل القرآن؛

=

على الخطأ؛ قال: ومن ذلك إجماعهم على أن النبي ﷺ بعث إلى الناس كافة دون جميع الأنبياء، وليس كذلك. وكل نبي في الأرض-بعثه الله تعالى-فإلى جميع الخلق بعثه؛ لأن آيات الأنبياء-لشهرتها-تبلغ آفاق الأرض، وعلى كل من بلغه ذلك أن يصدقه ويتبعه.

فخالف الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: (بعثت إلى الناس كافة، وبعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي يبعث إلى قومه)[١]. وأوَّل الحديث.

وفي مخالفة الرواية وحشة، فكيف بمخالفة الرواية والإجماع لما استحسن"[٢].

ومن فضائحه: زعمه أن راوية الإسلام أبا هريرة كذاب، وانتقد كل من أخذ أو روى عنه، قال البغدادي[٣]، وهو يعدد فضائح النظام، الفضيحة الحادية

=

تأويل مختلف الحديث؛ كتاب المعارف، أدب الكاتب. ينظر: وفيات الأعيان، ابن خلكان، (٤٢/٣)، طبقات المفسرين، الأدنه وي، ص٤٤، الإرشاد في معرفة المحدثين، أبو يعلى الخليلي، (٢٢٦/٢)، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، مرجع سابق، ص١٥٩.

(١) لفظه كما في صحيح البخاري، برقم، (٤١٩)، (٢١٨/٢)، وصحيح مسلم، برقم، (٥٢١)، (٣١٧/١). عن جَابِر بن عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنْ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي، نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ).

(٢) تأويل مختلف الحديث، ص٦٧، ٦٨.

(٣) عبد القاهر بن طاهر بن محمد، أبو منصور البغدادي، الأسفراييني،: عالم متفنن، من أئمة الأصول، كان متكلمًا من فقهاء الشافعية، ولد ونشأ في بغداد، ورحل إلى خراسان فاستقر في نيسابور. ومات في اسفرائين، سنة(٤٢٩ه). من تصانيفه: أصول الدين، وفضائح المعتزلة، الملل والنحل،

=

والعشرون من فضائحه، ثم قال: "ثم إن النظام-مع ضلالاته التي حكيناها عنه- طعن في أخيار الصحابة والتابعين من أجل فتاويهم بالاجتهاد، فذكر الجاحظ[١] عنه في كتاب (المعارف) وفى كتابه المعروف بـــ (الفتيا) أنه عاب أصحاب الحديث ورواياتهم أحاديث أبي هريرة -رضي الله عنهم، وزعم أن أبا هريرة كان أكذب الناس"[٢]. فكان هذا الأمر الذي جعل ابن قتيبة الدينوري[٣]-رحمه الله تعالى- يؤلف كتابه(تأويل مختلف الحديث)، ويرد على دعوى من ذكرنا من أئمة الزندقة الاعتزال، وما أوردوه من الشبهات على بعض الأحاديث النبوية، وجمع بين ما يظهر من الاختلاف بين بعض الأحاديث لمن قصر نظره عن معرفة ذلك، وعرّف-رحمه الله- المسلمين بأصحاب هذه المقالات، وماهم عليه من الزيغ والضلال.

وقد خيب الله ﷻ آمالهم، وكسر شوكتهم، فظهر في هذين القرنين أئمة الدين، وحماة السنة الذين قاموا بجهد كبير في توثيقها، وحفظها، والذب عن حملتها، كالأئمة الأربعة، أبي حنيفة النعمان[٤]، ومالك بن

=

الفرق بين الفرق، وغيرها. ينظر: المنتخب من كتاب السياق لتاريخ نيسابور، أَبُو إِسْحَاقَ العِرَاقِيُّ الصَّرِيْفِيْنِيُّ، ص٣٩٤، طبقات الفقهاء الشافعية، ابن الصلاح، (٥٥٢/٢)، المعين في طبقات المحدثين، الذهبي، ص١٢٦.

(١) سبق التعريف به.

(٢) الفرق بين الفرق، ص١٣٣.

(٣) سبق التعريف به.

(٤) النعمان بن ثابت بن زُوْطي، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة: إمام الحنفية، الفقيه المجتهد، مفتي =

أنس[١]، ومحمد بن إدريس الشافعي[٢]، وأحمد بن حنبل[٣]، وغيرهم.

=

أهل الكوفة، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد بالكوفة، سنة (٨٠هـ) ونشأ بها، توفي ببغداد، سنة (١٥٠هـ). ينظر: أخبار أبي حنيفة وأصحابه، حسين الصميري، ص١٥، مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه، الذهبي، ص١٣، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، محيي الدين الحنفي، (١/٣٦).

(١) مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، الإمام العالم، نجم السنن، إمام دار الهجرة، من التابعين، ولد مالك بن أنس بالمدينة المنورة، سنة (٩٣هـ)، وعاش كل حياته بها إلى أن توفي بها سنة، (١٧٩هـ)، ودفن بالبقيع. تلقى الإمام مالك علومه على علماء المدينة، من أشهرهم: نافع بن عبد الرحمن، ابن شهاب الزهري، ربيعة بن عبد الرحمن، وغيرهم، له مؤلفات، منها: الموطأ، والمدونة. ينظر: ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم، الدار قطني، (١/ ٣٥٤)، الانتفاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، ص٩، تزيين الممالك بمناقب الإمام مالك، السيوطي، ص٢٤.

(٢) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية، ولد سنة (١٥٠هـ)، كان فقيهًا أصوليًا مفسرًا شاعرًا، له تصانيف ذائعة منها، الرسالة في أصول الفقه، والأم في الفقه، وأحكام القرآن، توفي سنة (٢٠٤هـ). ينظر: توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، ابن حجر، ص٢٤، مناقب الإمام الشافعي، الرازي، ص٢٣، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، ابن عبد البر، ص٦٥، طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، (٢/ ٧١).

(٣) أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني، أبو عبد الله، إمام أهل السنة، وشيخ الإسلام، ولد سنة، (١٦٤هـ)، كان من كبار الأئمة الحفاظ، ومن أخيار هذه الأمة، مجمع على جلالته وزهده، وحفظه ووفور علمه، له العديد من المصنفات منها: المسند، فضائل الصحابة، المسائل، وغيرها. توفي ببغداد سنة، (٢٤١هـ). ينظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل، صالح بن الإمام أحمد، ص٣٠، منازل الأئمة الأربعة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، أبو بكر بن أبي طاهر، ص٢٣٢، مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ابن الجوزي، ص٢٥، مجمل الرغائب فيما للإمام أحمد بن حنبل من المناقب، زكي الدين الخزرجي الحنبلي، ص٥١.

فهؤلاء الأئمة الأربعة كانوا ذوي شأن عظيم، وعلو مقام في مرتبة الدين؛ لما قاموا به من جهود عظيمة في خدمة الشريعة الإسلامية، والدفاع عنها، ولما اشتهروا به من الخير والصلاح، فكانوا "هم المقتدى بهم، والمرجوع شرقًا وغربًا إلى مذهبهم، ولأنهم أجمع لشرائط القدوة والإمامة من غيرهم، وأكثر لتحصيل أسبابها وأدواتها من جودة الحفظ والبصيرة والفطنة والمعرفة بالكتاب والسنة"[(١)].

وكانوا –رحمهم الله تعالى– يجعلون السنة النبوية إلى جوار القرآن الكريم، لتبين آياته، وتوضح أحكامه، وتخصص عمومه، وتقيد مطلقه،. . .، وتجد في كتبهم، وما صدر عنهم من فتاوى في كل باب من أبواب الفقه مجموعة من الأحاديث النبوية إلى جوار الآيات القرآنية، فكان اهتمامهم بالمصدرين الأساسيين منقطع النظير، وتحذيرهم من مخالفتهما كثيرة في أقوالهم، ومع ذلك فقد قال السيوطي[(٢)]: "كان أهل هذا الرأي[إنكار السنة]موجودين بكثرة في زمن الأئمة الأربعة، وتصدى الأئمة وأصحابهم للرد عليهم في دروسهم ومناظراتهم وتصانيفهم للرد عليهم"[(٣)].

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (١٦٧/٤).

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي، جلال الدين: الحافظ، المؤرخ، الأديب، الشافعي. صاحب المؤلفات الجامعة، والمصنفات النافعة، ولد سنة (٨٤٩ ه)، وتوفي سنة (٩١١ه)، له مصنفات زادت عن خمسمائة مصنف في فنون العلم المختلفة، ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، السخاوي، (٦٥/٤)، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة، نجم الدين الغزي، (٢٢٧/١)، ديوان الإسلام، شمس الدين الغزي، (٥١/٣).

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، ص ١٥.

ففي زمن الإمام أبي حنيفة-رحمه الله- دخل عليه رجل من أهل الكوفة "والحديث يقرأ عنده، فقال الرجل: دعونا من هذه الأحاديث! فزجره الإمامُ أشدَ الزجر، وقال له: لولا السنة ما فهم أحدٌ منَّا القرآن. ثم قال للرجل: ما تقولُ في لحم القردِ، وأين دليله من القرآن؟ فأفحم الرجل، فقال للإمام: فما تقول أنت فيه؟ فقال: ليس هو من بهيمة الأنعام"(١).

فهذا موقف الإمام أبي حنيفة ممن اعترض على السنة النبوية، الزجر والتوبيخ والتعريف بالحجة والبرهان، للمنزلة العالية التي تحتلها السنة النبوية، التي -كما قال الإمام أبو حنيفة- لولاها ما فهم أحد من المسلمين القرآن، وعندما رأى الإمام أبو حنيفة -رحمه الله- هذا الرأي المبتدع يظهر عند بعض الناس، فما كان منه إلا أن سارع إلى حثّ أصحابه على اتباع السنة النبوية، والتمسك بها، والتنفير من القول في الشريعة بالرأي والهوى، ومخالفة ما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين، والتحذير لهم بأن كل من خالف ذلك أو تركه فقد ضل، فكان يقول رحمه الله تعالى: "إياكم والقول في دين الله -تعالى- بالرأي، وعليكم باتباع السنة، فمن خرج عنها ضلّ"(٢).

وفي زمن الإمام الشافعي-رحمه الله تعالى-وجد من يحمل هذا الفكر ويناظر عنه، ونقل الإمام الشافعي-رحمه الله- ما دار في تلك المناظرة التي دارت بينه

---

(١) المستخرج على المستدرك، العراقي، ص١٥، قواعد التحديث في فنون مصطلح الحديث، القاسمي، ص٥٢، كما روي هذا القول عن مجاهد بن جبر، ينظر: ذم الكلام وأهله، الهروي، (١٥٨/٢).

(٢) قواعد التحديث، مرجع سابق، ص٥٢.

وبين من ينسب إلى العلم بمذهب أصحابه[١]، ممن رفضوا السنة النبوية، واكتفوا بالقرآن الكريم فقط، قال الإمام الشافعي: "باب حكاية قول الطائفة التي ردت الأخبار كلها"[٢] ثم بدأ الإمام -رحمه الله-يعرض ما دار بينهما، وعرض فكر الرجل القائم على التنكر للسنة النبوية، قال الإمام الشافعي: "فقال لي [منكر السنة]: فاذكر الحجة فيما وصفت من كتاب الله، . . . ، فإني لا أقبل غير ذلك، ولا أرضى إلا به، ولا تذكر الحديث؛ فإني لا أقبله، ولا أنهاك عن قبوله"[٣]. فما كان من الإمام الشافعي إلا أن ناظره وألقمه حجرًا[٤]، وتنقل لنا كتب الأئمة الأعلام مناظرة أخرى بين الإمام الشافعي ورجل آخر ممن أنكر أحاديث الآحاد، قال ابن عساكر[٥]، وساق بسنده إلى الحارث بن سريج النقال[٦]، قال: دخلت على الشافعي يومًا وعنده أحمد بن حنبل، والحسين

(١) جماع العلم، الملحق بكتاب الأم، الشافعي، (٥/٩).

(٢) المرجع السابق، (٥/٩).

(٣) المرجع السابق، (٧/٩).

(٤) للاطلاع على المناظرة التي حصلت بينهما، يراجع: جماع العلم، الملحق بكتاب الأم، للإمام الشافعي، (٥/٩، وما بعدها).

(٥) عليّ بن الْحَسَن بن هبة اللّه بن عَبْد اللّه بن الْحُسَيْن، أَبُو القاسم بن عساكر، الحافظ الدمشقي، المحدث الشافعي، أحد من اشتهر ذكره، وشاع علمه، وعرف حفظه وإتقانه، كان مولده بدمشق، سنة (٥٩٩ه)، وتوفي بها سنة (٥٧١ه)، له مصنفات، منها: تاريخ دمشق، وتبيين كذب المفتري، الإشراف على معرفة الأطراف، وغيرها. ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، (٢٩٥/١٥)، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، ابن نقطة الحنبلي، ص٤٠٥، تذكرة الحفاظ، الذهبي، (٨٢/٤)، طبقات الشافعية الكبرى، (٢١٥/٧).

(٦) الحارث بن سريج النقال، أبو عمرو الخوارزمي ثم البغدادي، وإنما قيل له النقال: لأنه نقل رسالة الشافعي إلى عبد الرحمن بن مهدى وحملها إليه، ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، (١١٢/٢)، =

القلاس[١]- وكان الحسين أحد تلاميذ الشافعي المقدمين في حفظ الحديث- وعنده جماعة من أهل الحديث، والبيت غاص بالناس وبين يديه إبراهيم بن إسماعيل بن عُلَيَّةَ[٢]، وهو يكلمه في خبر الواحد. فقلت يا أبا عبد الله: عندك وجوه الناس، وقد أقبلت على هذا المبتدع تكلمه؟ فقال لي، وهو يبتسم: كلامي لهذا بحضرتهم أنفع لهم من كلامي لهم، قال: فقالوا: صدق. قال فأقبل عليه الشافعي، فقال: ألست تزعم أن الحجة هي الإجماع؟ قال: فقال: نعم. فقال له الشافعي: خبرني عن خبر الواحد العدل أبإجماع دفعته أم بغير إجماع؟ قال: فانقطع إبراهيم، ولم يجب وسر القوم بذلك[٣].

قال الإمام الشافعي عن ابن عُلَيَّةَ: "إِنَّ ابْنَ عُلَيَّةَ ضَالٌّ، قَدْ جَلَسَ بِبَابِ

=

لسان الميزان، ابن حجر، (٥١٤/٢)، الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، (٧٦/٣).

(١) الحسين القَلاَّس، بفتح القاف وتشديد اللام وفي آخرها السين المهملة، الفقيه البغدادي، ويقال: اسمه الحسن، كان من علية أصحاب الحديث، وحفاظ مذهب الشافعي. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، (١٢٧/٢)، طبقات الفقهاء، ابن منظور، ص١٠٣، تاريخ بغداد، (٦٤٧/٨)، المؤتلف والمختلف، الدار قطني، (١٨٦٠/٤).

(٢) إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن عُلَيَّةَ البصري: يكنى أبا إسحاق. قدم مصر، وسكنها. وله مصنفات في الفقه تشبه الجدل، كَانَ من كبار الجهمية، وأحد المتكلمين وممن يقول بخلق القرآن، وجرت له مع أَبِي عَبْد اللَّهِ مُحَمَّد بن إدريس الشافعي مناظرات في بغداد ومصر. توفي بمصر سنة (٥٢١٨). ينظر: تاريخ ابن يونس المصري، (٧/٢)، تاريخ بغداد، (٢٠/٦)، المغني في الضعفاء، الذهبي، (٤٢/١)، لسان الميزان، (٣٤/١).

(٣) تبيين كذب المفتري، ص٣٤٠، ٣٤١، تاريخ بغداد، (٢٠/٦).

الضَّوَالِّ يُضِلُّ النَّاس"[١].

وفي زمن إمام أهل السنة، الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله تعالى- كان للمبتدعة صولة وجولة، فامتحن في مسألة خلق القرآن، فصبر[٢]، وكان في ذات يوم في مناظرة مع رجل من الجهمية، كما حكاها صالح بن الإمام أحمد[٣]، فقال الجهمي مستنكرًا على الإمام أحمد عندما كان يرد عليه في مناظرته بالكتاب والسنة النبوية: "أَرَاكَ تَذْكُرُ الْحَدِيثَ وَتَنْتَحِلُهُ، فَقَالَ لَهُ [الإمام أحمد]: مَا تَقُولُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: ١١]، فَقَالَ: خَصَّ اللَّهُ بِهَا الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: مَا تَقُولُ إِنْ كَانَ قَاتِلاً أَوْ عَبْدًا أَوْ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا؟ فَسَكَتَ، قَالَ أَبِي: وَإِنَّمَا احْتَجَجْتُ عَلَيْهِمْ بِهَذَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَحْتَجُّونَ عَلَيَّ بِظَاهِرِ الْقُرْآنِ، وَلِقَوْلِهِ أَرَاكَ تَنْتَحِلُ الْحَدِيثَ"[٤]. فكان الرجل يريد

---

(١) سير أعلام النبلاء، (١٠/٢٤).

(٢) ينظر: في تفصيل فتنة خلق القرآن وما حصل للإمام أحمد: كتاب: سيرة الإمام أحمد، صالح بن الإمام أحمد، وكتاب: ذكر محنة الإمام أحمد بن حنبل، حنبل بن إسحاق بن حنبل، ومنازل الأئمة الأربعة، أبو زكريا السلماسي، ص٢٥٣، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " وَلَمْ تَكُنِ الْمُنَاظَرَةُ مَعَ الْمُعْتَزِلَةِ فَقَطْ، بَلْ كَانَتْ مَعَ جِنْسِ الْجَهْمِيَّةِ مِنَ الْمُعْتَزِلَةِ [وَالنَّجَّارِيَّة] وَالضِّرَارِيَّةِ، وَأَنْوَاعِ الْمُرْجِئَةِ، فَكُلُّ مُعْتَزِلِيٍّ جَهْمِيٌّ، وَلَيْسَ كُلُّ جَهْمِيٍّ مُعْتَزِلِيًّا، لَكِنْ جَهْمٌ أَشَدُّ تَعْطِيلاً؛ لِأَنَّهُ نَفَى الْأَسْمَاءَ وَالصِّفَاتِ، وَالْمُعْتَزِلَةُ تَنْفِي الصِّفَاتِ دُونَ الْأَسْمَاءِ. منهاج السنة النبوية، (٢/٢٠٥).

(٣) صالح بن الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني البغدادي، أبو الفضل: قاض. ولد ببغداد سنة (٢٠٣ه)، ونشأ بين يدي أبيه الإمام أحمد، وأخذ عنه. كان أكبر أولاده، ثم ولي القضاء بأصبهان، وتوفي فيها سنة (٢٦٥ه). ينظر: تاريخ بغداد، (٩/٣١٨)، المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، ابن مفلح، (١/٤٤٤)، سير أعلام النبلاء، (١٢/٥٣٠).

(٤) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، صالح بن أحمد بن حنبل، ص٥٩، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصفهاني، (٩/٢٠١)، سير أعلام النبلاء، (١١/٢٤٩)، جلاء العينين في محاكمة =

من الإمام أحمد –رحمه الله– أن يناظره بالقرآن الكريم، ولا يذكر السنة التي كان منكرًا لها، فسلك الإمام مسلك أهل العلم –من السلف الصالح– في بيان الحق الذي لا مرية فيه، وهو أن أحكام القرآن الكريم لا يمكن أن تستغني عن بيان السنة وإيضاحها، فذكر له هذه الآية العامة التي يدخل تحتها كل الأصناف الذين ذكرهم الإمام، ومعلوم مما بينته السُّنة أن الكافر لا يرث المسلم، وكذا القاتل والعبد[١]، فأسكت الجهمي، ولم يستطع جوابًا.

ولم يقف الإمام أحمد–رحمه الله– عند هذا الأمر، بل قام بتأليف كتاب في طاعة الرسول ﷺ[٢]، قال ابن القيم[٣] رحمه الله: "وقد صنف الإمام أحمدﷺ

=

الأحمدين، نعمان الآلوسي، ص٢٣٣.

(١) ينظر في بيان موانع الإرث: المغني، لابن قدامة المقدسي، (١٤٩/٦)، المحرر في الفقه، عبد السلام بن تيمية، (٤١٢/١).

(٢) ذكر هذا المصنف للإمام أحمد رحمه الله، كثير من العلماء، ولعل الكتاب مفقود، قال د. عبد الله التركي: "وقد صنف الإمام أحمد–رحمه الله–كتابًا في طاعة الرسول ﷺ بين فيه أنه يجب على الأمة اتباعه، وتنفيذ ما جاء به، وإن لم يكن في القرآن، وذكر فيه أن السنة ضرورية للكتاب في تفسيره، وبيان مجمله، وتخصيص عامة، وتقييد مطلقه. وأصحابه –رحمهم الله– يتناقلون عنه من هذا الكتاب كثيرًا من الروايات والتخريجات والأقوال عند كلامهم على هذه المسائل في أبوابها ". ينظر: أصول مذهب الإمام أحمد، د. عبد الله التركي، وممن ذكر هذا الكتاب: إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، (٢٠٧/٢)، مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٢٣/٢٠)، الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، (٩٧/٥)، الفهرست، ابن النديم، ص٣٢٠، هدية العارفين، إسماعيل البابي، (٤٨/١).

(٣) سبق التعريف به.

كتابًا في طاعة الرسول ﷺ ردَّ فيه على من احتج بظاهر القرآن في معارضة سنن رسول الله ﷺ وترك الاحتجاج بها"[١].

ويأتي في زمن عثمان بن سعيد الدارمي[٢] من أثار شبهات حول السنة النبوية، بغرض الطعن فيها وصد الناس عنها، فتصدى للردِّ عليه أبو سعيد الدارمي، فقال: "باب في الحث على طلب الحديث، والرد على من زعم أنه لم يكتب على عهد النبي ﷺ وأصحابه الحديث، والذب عن النبي ﷺ وأصحاب الحديث وأهل السنة، وفضلهم على غيرهم"[٣].

وبيَّن الشبهات التي أدت به إلى رد السنة، فقال رحمه الله: " فكان مما تأول في ردها أن روى عن النبي ﷺ أنه قال: (سيفشو الحديث عني، فما وافق منها القرآن فهو عني، وما خالفه فليس عني)"[٤][٥].

ومما احتج به المنكر للسنة في إنكاره لها، كما حكاه عنه الإمام الدارمي: "واحتججت -أيضًا- في رد آثار رسول الله ﷺ التي رويت عن أبي يوسف[٦]

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن قيم الجوزية، (٢٠٧/٢)، وينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، (٢٢٣/٢٠)، الفتاوى الكبرى، ابن تيمية، (٩٧/٥).

(٢) سبق التعريف به.

(٣) نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد، عثمان الدارمي، (٥٩٩/٢).

(٤) الحديث موضوع. ينظر: كشف الخفاء ومزيل الإلباس، العجلوني، (٩٩/١).

(٥) نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد ، (٦٠٠/٢).

(٦) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري، الكوفي البغدادي، أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه،كان فقيهًا عالمًا حافظًا، يعرف بحفظ الحديث، ولد بالكوفة، سنة (١١٣هـ)، وتوفي ببغداد، سنة (١٨٢هـ)، وولي القضاء ببغداد لثلاثة من الخلفاء =

أنها رأس الآثار وألزمها للناس، بكذب ادَّعيته، زعمت أنه صح عندك أنه لم تكتب الآثار، وأحاديث النبي ﷺ في زمن النبي ﷺوالخلفاء بعده إلى أن قتل عثمانرضي الله عنهفكثرت الأحاديث، وكثر الطعن على من رواها"[(١)].

وقد نقض أبو سعيد الدارمي قوله، وأبان عن عوار مذهبه، فقال رحمه الله تعالى: "فيقال لهذا المعارض: دعواك هذه كذب لا يشوبه شيء من الصدق، فمن أين صح عندك أن الأحاديث لم تكن تكتب عن رسول الله ﷺ والخلفاء بعده إلى أن قتل عثمان؟ ومن أنبأك بهذا؟ فَهَلُمَّ إسناده، وإلا فإنَّك من المسرفين على نفسك، القائلين فيما لا يعلم، فقد صح عندنا أنها كتبت في عهد رسول اللهﷺ والخلفاء بعده...."[(٢)]. فأظهر الدارمي شبهته التي بنى عليها مذهبه، وأوضح عن مينها وبعدها عن الحق.

ثالثًا: ظهورهم في القرن الرابع الهجري، وما بعده:

ومع مرور الأيام يأتي من شغب على السنة، وحاول الصد عنها، والتشكيك في حجيتها وصدقها، ففي القرن الرابع الهجري ظهر من يحمل العداء للسنة النبوية، ويحاول أن يظهر بين الناس أن هناك تعارضاً بين القرآن الكريم والسنة

=

المهدي والهادي والرشيد. وهو أول من دعي قاضي القضاة، له كتب، منها: الخراج، والآثـــار، واختلاف الأمصار. ينظر: الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، ابن عبد البر، ص١٧٢، تاج التراجم في طبقات الحنفية، قطلوبغا، ص٣١٥، أخبار القضاة، محمد بن حيان الضبي، (٣/٢٥٤).

(١) نقض الإمام عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي العنيد، (٢/٦٠٤).

(٢) المرجع السابق، (٢/٦٠٥).

النبوية، فكان ممن أشار إلى هذه الفرقة الضالة وذمها وبيّنَ خطرها الآجري[١](ت: ٣٦٠هـ) في كتابه الشريعة، حيث عقد بابًا في هذا الكتاب محذرًا منهم، فقال رحمه الله تعالى: (باب التحذير من طوائف يعارضون سنن النبي ﷺ بكتاب الله تعالى، وشدة الإنكار على هذه الطبقة)[٢]، فنبه العلماء على خطر فكرهم، وأن من حمله فإنه رجل سوء، يحذر منه الناس؛ كما حذر منه الرسول ﷺ، فقال رحمه الله: "ينبغي لأهل العلم والعقل إذا سمعوا قائلاً يقول: قال رسول الله ﷺ في شيء قد ثبت عند العلماء، فعارض إنسان جاهل، فقال: لا أقبل إلا ما كان في كتاب الله تعالى، قيل له: أنت رجل سوء، وأنت ممن يحذرناك النبي ﷺ، وحذر منك العلماء، وقيل له: يا جاهل، إن الله أنزل فرائضه جملة، وأمر نبيه ﷺ أن يبين للناس ما أنزل إليهم، قال الله عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤] فأقام الله -تعالى- نبيه عليه السلام مقام البيان عنه، وأمر الخلق بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وأمرهم بالانتهاء عما نهاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ الحشر: ٧"[٣].

---

(١) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري: فقيه شافعي محدث. نسبته إلى آجر (من قرى بغداد)، ولد فيها، وحدث ببغداد، قبل سنة ٣٣٠ ثم انتقل إلى مكة، فتنسك، وتوفي فيها، سنة (٣٦٠هـ) له تصانيف كثيرة، منها: أخلاق حملة القرآن، الشريعة، وأخلاق العلماء، وغيرها. ينظر: طبقات الشافعية الكبرى، (١٤٩/٣)، سير أعلام النبلاء، (١٣٣/١٦)، وفيات الأعيان، (٢٩٢/٤).

(٢) الشريعة، الآجري، (٤١٠/١).

(٣) المرجع السابق، (٤١٠/١).

وفي زمن ابن بطة[١](ت: ٣٨٧هـ) ظهر من يحمل هذا الفكر، مما دعا ابن بطة إلى الرد عليه في كتابه: (الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة)، المشهور: بـــ(الإبانة الكبرى)، حيث بوب بابًا في من يعارض السنة بالقرآن الكريم، فقال: (بَابُ ذِكْرِ مَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ مِنْ طَاعَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَالتَّحْذِيرِ مِنْ طَوَائِفَ يُعَارِضُونَ سُنَنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْقُرْآنِ)[٢]، ثم بدأ العلامة ابن بَطة-رحمه الله- البيان لما حملته هذه الدعوة من فكر خطير، وشر مستطير، يهدفون من ورائها هدم الدين، فقد كانوا يدعون الناس إلى الاكتفاء بالقرآن الكريم، ونبذ السنة النبوية، فقال: "وَلْيَعْلَمِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ أَهْلِ الْعَقْلِ وَالْعِلْمِ أَنَّ قَوْمًا يُرِيدُونَ إِبْطَالَ الشَّرِيعَةِ وَدُرُوسَ آثَارِ الْعِلْمِ وَالسُّنَّةِ، فَهُمْ يُمَوِّهُونَ عَلَى مَنْ قَلَّ عِلْمُهُ وَضَعُفَ قَلْبُهُ بِأَنَّهُمْ يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَيَعْمَلُونَ بِهِ، وَهُمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ يَهْرُبُونَ وَعَنْهُ يُدْبِرُونَ، وَلَهُ يُخَالِفُونَ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُمْ إِذَا سَمِعُوا سُنَّةً رُوِيَتْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَوَاهَا الْأَكَابِرُ عَنِ الْأَكَابِرِ، وَنَقَلَهَا أَهْلُ الْعَدَالَةِ وَالْأَمَانَةِ، وَمَنْ كَانَ مَوْضِعَ الْقُدْوَةِ وَالْأَمَانَةِ، وَأَجْمَعَ أَئِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صِحَّتِهَا أَوْ حَكَمَ فُقَهَاؤُهُمْ

(١) عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله ابن بَطَّةَ الْعُكْبَرِيُّ: العالم، المحدث، الفقيه الحنبلي. من أهل عكبرا ولد، سنة (٣٠٤هـ)، ووفاة سنة، (٣٨٧هـ) رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها في طلب الحديث، قيل: له مصنفات تزيد عن المائة مصنف، منها: الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، ويسمى بالإبانة الكبرى، الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، ويسمى بالإبانة الصغرى، والسنن، وغيرها. ينظر: طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، (١٤٤/٢)، تاريخ بغداد، (٣٧٠/١٠)، الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ابن ماكولا، (٣٣٠/١).

(٢) الإبانة الكبرى، (٢٢٣/١).

بِهَا، عَارَضُوا تِلْكَ السُّنَّةَ بِالْخِلَافِ عَلَيْهَا وَتَلَقَّوْهَا بِالرَّدِّ لَهَا، وَقَالُوا لِمَنْ رَوَاهَا عِنْدَهُمْ: تَجِدُ هَذَا فِي كِتَابِ اللَّهِ؟ وَهَلْ نَزَلَ هَذَا فِي الْقُرْآنِ؟ وَأْتُونِي بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ حَتَّى أُصَدِّقَ بِهَذَا"(١).

ثم ما كان منه-رحمه الله تعالى- إلا أن عرف الناس حقيقة أمرهم، وأنهم يتدثرون بالإسلام، لتحقيق أهدافهم، والوصول عن طريقه لنيل مأربهم، التي كان على رأسها هدم صرح الإسلام، فقال رحمه الله تعالى: "فَاعْلَمُوا-رَحِمَكُمُ اللَّهُ-أَنَّ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِنَّمَا تَرَقَّقَ عَنْ صَبُوحٍ وَيُسْرٍ خَبِيئًا فِي إِرْبِغَاءَ يَتَحَلَّى بِحِلْيَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَيُضْمِرُ عَلَى طَوِيَّةِ الْمُلْحِدِينَ، يُظْهِرُ الْإِسْلَامَ بِدَعْوَاهُ وَيَجْحَدُهُ بِسِرِّهِ وَهَوَاهُ"(٢).

وبدأ يبين-رحمه الله-كيف يتعامل المسلم مع هذا الفكر، وكيف يرد على أصحابه، ويعرفه بأهمية السنة النبوية من الدين، ومكانتها من شريعة رب العالمين، فقال: "فَسَبِيلُ الْعَاقِلِ الْعَالِمِ إِذَا سَمِعَ قَائِلَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ: يَا جَاهِلاً فِي الْحَقِّ، خَبِيثًا فِي الْبَاطِنِ، يَا مَنْ خُطِّئَ بِهِ طَرِيقُ الرَّشَادِ وَسَبِيلُ أَهْلِ السَّدَادِ، إِنْ كُنْتَ تُؤْمِنُ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَا أَمَرَكَ اللَّهُ بِهِ وَمَا نَهَاكَ عَنْهُ فَرْضٌ عَلَيْكَ قَبُولُهُ، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ بِطَاعَةِ رَسُولِهِ وَقَبُولِ سُنَّتِهِ، لِأَنَّ اللَّهَ -عَزَّ وَجَلَّ- إِنَّمَا ذَكَرَ فَرَائِضَهُ وَأَوَامِرَهُ بِخِطَابٍ أَجْمَلَهُ، وَكَلَامٍ اخْتَصَرَهُ وَأَدْرَجَهُ، دَعَا خَلْقَهُ إِلَى فَرَائِضَ ذَكَرَ أَسْمَاءَهَا، وَأَمَرَ نَبِيَّهُ بِأَنْ يُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

(١) المرجع السابق، الجزء والصفحة نفسها.

(٢) المرجع السابق، (١/٢٢٣).

مَعَانِيَهَا، وَيُوقِفَ الْأُمَّةَ عَلَى حُدُودِ شَرَائِعِهَا وَمَرَاتِبِهَا، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: ٤٤]"[(١)].

وفي القرن الخامس ظهر من ينكر الأحاديث النبوية، فيذكر البزدوي[(٢)] رحمه الله، (ت: ٤٨٢هـ) في أصوله، وهو يتحدث في باب بيان أقسام السنة، بيان المتواتر، أنه وجد من الناس من ينكر الأخبار، فقال: "وهذا القسم[أي المتواتر] يوجب علم اليقين بمنزلة العيان علمًا ضروريًا، ومن الناس من أنكر العلم بطريق الخبر أصلاً، وهذا رجل سفيه لم يعرف نفسه، ولا دينه، ولا دنياه، ولا أمه، ولا أباه مثل من أنكر العيان"[(٣)]. ثم بين–رحمه الله–بطلان هذا القول، فقال: "وهذا قول باطل، نعوذ بالله من الزيغ بعد الهدى، بل المتواتر يوجب علم اليقين ضرورة بمنزلة العيان بالبصر، والسمع بالأذن، وضعًا وتحقيقًا"[(٤)].

وقال مرشدًا صاحب هذا القول إلى طريق الصواب: "وَلَوْ تَأَمَّلَ حَقَّ تَأَمُّلِهِ لَوَضَحَ لَهُ الْحَقُّ مِنْ الْبَاطِلِ، فَأَمَّا الْعِلْمُ بِالْمُتَوَاتِرِ قَلَّمَا يَجِبُ عَنْ دَلِيلٍ أَوْجَبَ عِلْمًا بِصِدْقِ الْمُخْبِرِ بِهِ لِمَعْنًى فِي الدَّلِيلِ لَا لِغَفْلَةٍ مِنْ الْمُتَأَمِّلِ، وَصَحَابَةُ رَسُولِ

---

(١) المرجع السابق، (١/٢٢٣-٢٢٤).

(٢) علي بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم، أبو الحسن، شيخ الحنفية، البزدوي: فقيه أصولي، ولد في حدود سنة (٤٠٠هـ)، وتوفي سنة (٤٨٢هـ) من سكان سمرقند، له التصانيف الجليلة، منها: المبسوط، كنز الوصول في أصول الفقه. ينظر: الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية، ابن أبي الوفاء الحنفي، (١/٣٧٢)، تاج التراجم في طبقات الحنفية، ص٢٠٥، سير أعلام النبلاء، (١٨/١٧٧).

(٣) أصول البزدوي، المسمى (كنز الوصول الى معرفة الأصول)، ص١٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٠.

اللَّهِ ﷺ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ-كَانُوا قَوْمًا عُدُولاً أَئِمَّةً لَا يُحْصَى عَدَدُهُمْ، وَلَا يَتَّفِقُ أَمَاكِنُهُمْ طَالَتْ صُحْبَتُهُمْ وَاتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ بَعْدَمَا تَفَرَّقُوا شَرْقًا وَغَرْبًا، وَهَذَا يَقْطَعُ الِاخْتِرَاعَ"[(١)].وبعد ذلك بدأ يبدد شبهاتهم التي سرت في أوساط مجتمعاتهم، وينسف تأويلاتهم، ويظهر قبح فكرهم، وسوء معتقدهم، فرحمه الله رحمة واسعة.

وفي القرن الثامن، ظهر من يدعو إلى الاقتصار على القرآن وترك السنة، فأدرك الإمام الشاطبي[(٢)] خطر هذا المنهج في فهم القرآن ومعرفة شرائع الإسلام، فرد عليهم مقالهم، وبين بطلان منهجهم، وانحراف طريقهم؛ حيث فارقوا السنة، وما عليه إجماع الأمة من الاعتماد عليها في بيان القرآن، وأوضح-رحمه الله- أن هذا المنهج القائم على"الِاقْتِصَار عَلَى الْكِتَابِ رَأْيُ قَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ، خَارِجِينَ عَنِ السُّنَّةِ؛ إِذْ عَوَّلُوا عَلَى مَا بَنَيْتَ عَلَيْهِ من أن الكتاب فيه بيان كل شيء، فَاطَّرَحُوا أَحْكَامَ السُّنَّةِ فَأَدَّاهُمْ ذَلِكَ إِلَى الِانْخِلَاعِ عَنِ الْجَمَاعَةِ، وَتَأْوِيلِ الْقُرْآنِ عَلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ"[(٣)].

وبعد أن أورد الشاطبي أقوال الأئمة من السلف في التحذير من أقوال هذه

---

(١) المرجع السابق، ص١٥١.

(٢) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، أبو إسحاق، المشهور بالشاطبي: محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر. من أهل غرناطة. كان من أئمة المالكية. له مؤلفات منها: الموافقات في أصول الفقه، الاعتصام في أصول الفقه، وغيرهما، توفي (٧٩٠هـ). ينظر: الأعلام، (٧٥/١)، معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، (١١٨/١).

(٣) الموافقات، أبو إسحاق الشاطبي، (٣٢٥/٤، ٣٢٦).

الطائفة الضالة[١]، أوضح عن هدفهم الذي يريدون من خلاله إنكار السنة النبوية، فقال رحمه الله تعالى: "إِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَهْلِ الْبِدَعِ هَكَذَا فَعَلُوا، اطَّرَحُوا الْأَحَادِيثَ، وَتَأَوَّلُوا كِتَابَ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا"[٢].

وفي القرن التاسع، ظهر في اليمن من طعن في السنة النبوية، ومقت أهلها، وشنع على حامليها وأئمتها، فقام من يذب عن ساحتها، ويدافع عن حياضها، ألا وهو محمد بن إبراهيم الوزير[٣]، (ت:٨٤٠هـ)،

حيث قام شيخه علي بن محمد بن أبي القاسم[٤]، الذي كان من علماء الزيدية[٥] في عصره، بتأليف كتابٍ شكك فيه على السنة وحامليها، وعاب فيه

---

(١) ينظر: المرجع سابق، (٤/ ٣٢٦ - ٣٢٩).

(٢) المرجع السابق، (٤/٣٢٩).

(٣) محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى، المشهور بابن الوزير اليمني، ولد سنة(٧٧٥هـ)، وتوفي سنة(٨٤٠هـ)، كان إمامًا من أئمة السنة، الذابين عنها، المدافعين عن حياضها، صنف مصنفات عدة، منها: العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ومختصره الروض الباسم، وترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، وغيرها. ينظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، (٢٧٢/٦)، مطلع البدور ومجمع البحور، (١٣٨/٤)، ابن أبي الرجال، طبقات صلحاء اليمن، ص١٩، البريهي، طبقات الزيدية الكبرى، (٨٩٦/٢)، يحيى بن الحسين بن القاسم.

(٤) علي بن محمد بن أبي القاسم، كان من علماء الزيدية المشهورين، مفسّر، ولد سنة (٧٦٩ هـ)، وتوفي سنة (٨٣٧هـ)، له مصنفات، منها: تجريد الكشاف في التفسير، وله في النحو شرح على كافية ابن الحاجب موسوم بالبرود الصافية. ينظر: طبقات الزيدية الكبرى، إبراهيم بن القاسم، (٧٧٨/٢)، البدر الطالع، (٤٨٥/١)، خُلاصة المتون، محمد زبارة، (٩٤/٢).

(٥) الزيدية: تعتبر الزيدية أقرب الفرق الإسلامية إلى أهل السنة والجماعة؛ إذ كانت في بداية ظهورها، وعصر نشأتها على ما كان عليه السلف الصالح، ويتصف مذهبهم بالابتعاد عن غلو الشيعة الاثنى =

على أئمتها وأهلها، وقال بمعتقدات مخالفة لما عليه الأمة من توقير أحاديث نبيها ﷺ فرد عليه ابن الوزير –رحمه الله تعالى– في كتابه (العواصم والقواصم، في الذب عن سنة أبي القاسم ﷺ)، واختصره في كتاب سماه، (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم ﷺ)، فبين سبب تأليفه للكتاب، حيث قال: "وقد قصدت وجه الله–تعالى–في الذب عن السنن النبوية، والقواعد الدينية"[1]، وسبب ذلك الذب ما وجده في رسالة شيخه على بن أبي القاسم من الهجوم على السنة النبوية وعلى أهلها، فقال –رحمه الله– مبينًا ما حوته رسالة شيخه: "والسَّيِّد–أيَّده الله–بالغ في التشكيك على مَنْ أراد الرجوع إلى الكتاب والسُّنَّة، بحيث لو تصدَّى بعضُ الفلاسفة للتَّشكيكِ على المسلمين في الرجوع إلى كتاب

=

عشرية، وباقي فرق الشيعة، بيد أن الوضع قد اختلف في الآونة الأخيرة؛ حيث أصبح أكثر الزيدية على مذهب الاثنى عشرية، وأما سبب تسميتهم بهذا الاسم، قال عبد الله بن حمزة–أحد علماء الزيدية في اليمن–(ت: ٥٥٨٣): "أعلم أيدك الله أنها سميت زيدية لاتباعها زيد بن علي"، وأما عن مبادئهم، فيقول ابن حمزة: "فاعلم أن الظاهر من مذهبهم تقديم علي في الإمامة على أبي بكر وعمر وعثمان، واعتقادهم النص الاستدلالي دون الضروري خلافًا للإمامية، وهم لا يسبون الصحابة ولا يفسقونهم"، وهم ثلاث فرق: الجارودية، السليمانية، البترية، وهم يرجعون في الأصول إلى الاعتزال، وفي الفروع إلى مذهب أبي حنيفة إلا في مسائل قليلة. ينظر في مذهبهم: مقالات الإسلاميين، الأشعري، ص٦٥، التنبيه والرد، الملطي، ص٣٢، الفرق بين الفرق، ص١٦، المجموع المنصوري، عبد الله بن حمزة، (٢/٣٨٤-٣٩٠)، المواقف، (٣/٦٩٠)، المنية والأمل في شرح الملل والنحل، ابن المرتضى، ص٩٦، تاريخ الفرق الإسلامية، محمد خليل، ص١٦٥، الزيدية، الأكوع، ص١٤.

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليمني، (١/٢٢٣).

ربِّهم الذي أُنزِل عليهم، والاعتمادِ على سُنَّة نبيهم الذي أُرْسِل إليهم، ما زاد على ما ذكر السَّيِّدُ؛ فإنه شكك في صحة الأخبار النبوية، وطعن في جميع طُرُقِها، وطرَّقَ الشك في إسلام رُواتها، وفي إسلام من استطاعَ أن يُشكِّكَ في إسلامه، حتى شَكَّكَ في إسلامِ الإمامين الكبيرين مالكٍ والشافعيِّ، فمنع من معرفة حديثِ الفقهاء، وأوجب معرفةَ رجال الأسانيد، ومعرفةَ عدالتهم وعدالة مَن عدَّلهم، وعدالة من عدَّل المعدل"[(١)].

وفي أيام السيوطي[(٢)](ت: ٩١١هـ)، نجد أن لفكر هذه الطائفة ظهورًا، فهيأ الله، من ذاد عن مكانتها، وجرد قلمه للرد على أعدائها، ودحض شبهات خصومها، وهو الحافظ السيوطي–رحمه الله– حيث ألف كتابًا سماه: (مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة)، وبين في مقدمته سبب تأليفه لهذا الكتاب، فقال: "اعلموا–يرحمكم الله–أن من العلم كهيئة الدواء، ومن الآراء كهيئة الخلاء، لا تذكر إلا عند داعية الضرورة، وإن مما فاح ريحه في هذا الزمان، وكان دارسًا– بحمد الله تعالى– منذ أزمان، وهو أن قائلاً رافضيًا زنديقًا أكثر في كلامه أن السنة النبوية والأحاديث المروية – زادها الله علوًا وشرفًا –لا يحتج بها، وأن الحجة في القرآن خاصة...."[(٣)]، ثم قال السيوطي–رحمه الله تعالى– بعد ذلك:

---

(١) المرجع السابق، (٣٢٧/١)، وينظر قريبًا من هذا الكلام في مختصر الكتاب المسمى، بـ (الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليمني، (٦١/١).

(٢) سبق التعريف به.

(٣) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، ص٥.

"وهذه آراء ما كنت أستحل حكايتها، لولا ما دعت إليه الضرورة من بيان أصل هذا المذهب الفاسد الذى كان الناس في راحة منه من أعصار"[١].

ثم بين -رحمه الله- أصلَ هذه الفرقة الضالة التي أنكرت الاحتجاج بالسنة، فقال: "وأصل هذا الرأي الفاسد أن الزنادقة وطائفة من غلاة الرافضة ذهبوا إلى إنكار الاحتجاج بالسنة والاقتصار على القرآن "[٢].

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، مرجع سابق، ص٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦.